الفصل الخامس

الدور الإنساني العربي الإسلامي في الحاضر والمستقبل
لماذا تتناقض القابلية للاستعمار مع الدور الرسالي للأمة؟

obeikandl.com

obeikandl.com

هل للأمة دور رسالي في وقتنا الحاضر؟ أم انتهى دورها منذ زمن بعيد؟

هل توقفت الدعوة لدين الله أم أن الإسلام ماضٍ في التوسع والانتشار؟

إذا انتهى دور الأمة الرسالي فهل يعني أنها أصبحت ذات قابلية للاستعمار؟

وإذا توقفت الدعوة لدين الله فهل يعني أن الدور الإسلامي انقلب إلى الانكفاء والتقوقع ومن ثم إلى الانحسار فالموت؟

أسئلة مشروعة قد يطرحها أكثر من طرف أو أكثر من فرد. لكن المسألة ليست بهذه البساطة والسطحية. فهي تقود للبحث المعمق في طبيعة الدين الإسلامي كدين، أي طبيعة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وسيرة السلف الصالح والتاريخ الإسلامي كما عرفته الشعوب الإسلامية برمتها، لا كما دونه الملوك من جهة، وما دونه المستشرقون من جهة أخرى.

إذاً، ما طبيعة هذا الدين وما جوهره؟ هل هو دين للعرب فحسب أم لهم ولغيرهم؟ هل هو دين عنصري كما يدعي بعض اليهود وبعض المستشرقين المغرضين؟ أم هو دين إنساني منفتح عالمي؟

فعلى ضوء الفهم الحقيقي لجوهر هذا الدين يتحدد الدور الرسالي له في الحاضر والمستقبل. ويجدر بنا أن نحدد هنا طبيعة من يحملون رسالة هذا الدين ويستطيعون فعلاً القيام بالدور الذي حدده الخالق في كتابه العزيز.

منذ البداية نستطيع وبكل ثقة القول: إن الإسلام دين دنيا ودين آخرة، أعطى الأولى حقها وأعطى الثانية حقها. وهنا نشير إلى هذا التوازن الذي جعل ويجعل المسلم متوازناً لا تشويش في رؤيته ولا قلق على مصيره.

الإسلام إعمار الأرض بكل ما هو نافع للناس من حضارة وفكر وعمران وثقافة وعلاقات، والعمل على إرضاء الله سبحانه من خلال العبودية النظيفة النقية له، والتي تحدد ما هو حرام وما هو حلال، ما هو شر وما هو خير. ما هو نافع وما هو ضار.

فإذا اختل هذا التوازن اختل الاستعداد النفسي لتقبل الأمور أو رفضها. ونعتقد بداية أن الدعوة للاستعمار وإلصاق سمة القابلية للاستعمار على الأمة يعتبر خللاً فادحاً بعينه، حيث يعتقدون أن الأمة وخاصة العربية فقدت توزانها ولذلك هي جاهزة لتقبل فكرة القابلية للاستعمار.

قد تكون بعض مظاهر الخلل موجودة هنا أو هناك ولكن التوازن أيضاً ما يزال موجوداً ولعل ما يحدث من مقاومة في فلسطين والعراق يدل عليه بشكل واضح جداً، لأن المقاومة صاغت نفسها على أساس إسلامي حقيقي وليس على أساس غيره، إضافة لظاهرة جوهرية تحدث في الغرب نفسه، وهي إقبال الآلاف من أبناء الغرب على الدخول في الإسلام.

يقول تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: 77).

لقد حددت هذه الآية ثلاثة أمور هي جوهر التوازن لأي إنسان. فعليك أيها الإنسان المسلم المؤمن أن تطلب الآخرة من خلال ما أنعم الله عليك من المال والغنى والصحة. فالله سبحانه يستحق الشكر على هذه النعم. ولا تنسَ نصيبك من الدنيا في تمتعك بالحلال وطلبك إياه ولا تبغ الفساد في الأرض فإن الله لا يحب المفسدين.

فمرضاة الله أولاً.

ونصيبك من الدنيا بالحلال ثانياً.

وعدم الإفساد في الأرض ثالثاً.

ولو حقق الإنسان هذه الأمور لاستقام وضع الإنسانية كلها. فهذه أمور كلية تندرج في سلمها عشرات الأمور ومئات الجزئيات التفصيلية. فما معنى الفساد في الأرض؟

قد لا نستطيع إحصاء الأمور التي يمكن أن نطلق عليها أموراً فاسدة.

وما معنى مرضاة الله؟ إنها عالم واسع من فعل الخير للنفس وللناس والأرض والحيوان. وكذلك ما معنى النصيب من الدنيا؟ هل نستطيع إحصاء ما حلل الله لنا من حلال دنيوي؟ فالإسلام لم يقمع ميل الإنسان للغنى والتمتع بحلال الدنيا، لم يقمع

النفس في نوازعها بل هذّبها ووجهها الوجهة الصحيحة التي ليس فيها غث ولا فساد ولا ضرر على المستوى الشخصي أو المستوى الجمعي.

فماذا تريد البشرية اليوم؟ هل تريد إلا إصلاحاً بعد فساد؟ وهل تريد إلا معرفة الحلال فتقترب منه والحرام فتبتعد عنه؟ وهل تريد إلا الوصول إلى رضا خالقها بعد أن أصبح غضب الله نتيجة فسادها وإفسادها؟

على أية حال فإن الدور الرسالي لأمة الإسلام هو دور مرسوم لها. ولم تكن قبل الإسلام صاحبة دور يذكر. فالله سبحانه أنزل القرآن الكريم لهذه الأمة راسماً دورها على أكمل وجه. ولا يصح في مقياس العقل والمنطق أن يرسم الله سبحانه دور الأمة الرسالي الإنساني وفي الوقت نفسه تكون ذات قابلية للاستعمار. فشتان بين هذا وذاك.

فالقابلية للاستعمار إلغاء للدور الرسالي للأمة. وإلغاء الدور الرسالي يعني إلغاء ما رسمه الله سبحانه وحاشى لله أن يلغي ما رسمه لهذه الأمة.

الدور الرسالي والمصادر الأساسية:

حين ننظر إلى المنطقة العربية، جغرافيتها، تاريخها، عقيدتها ثم نقترب أكثر فأكثر إلى ما قدمته من نبوات ورسالات، نجد أن القيم الإنسانية اختُزلت في هذه النبوات وهذه الرسالات.

قد يقول قائل: إنك مازلت تقول كنا وكنا، ويكفينا الذي كان. ماذا نفعل اليوم ماذا نقدم اليوم أين نحن من العالم؟

نعم نقول كنا وما زلنا. فتلك الرسالات لا تزال حية في أبناء البشرية.

كم عدد الذين ينتسبون إلى الرسالات السماوية؟ كم من الملايين تطلق على نفسها صفة المسيحية نسبة إلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام؟ كم من الملايين تطلق على نفسها صفة الإسلامية أو المسيحية؟ وكم من المتهودين ينسبون عقيدتهم إلى موسى عليه السلام وكتابه وتوراة الأنبياء من بعده؟

هل ينكر المتهود يهوديته، هل يرضى النصراني أن نبعده عن إنجيله وعقيدته. وهل نستطيع أن نخلع من روح المسلم إسلامه؟

إن آلاف السنين التي مرت على وجود أصحاب الرسالات من الأنبياء والمصلحين. لم تستطع أن تلغي تعاليم القيم الإنسانية. ولم تستطع أن تبيد المعتنقين لتلك الرسالات والعقائد، إذ إن مصادر الرسالات مبثوثة هنا وهناك. وهي لا تحتاج إلى تفسير أو تأويل. لكن العقل البشري المنحرف أراد يحرف النصوص الرسالية عن مقاصدها الإنسانية، وبذلك أفقدها دورها الإنساني العالمي.

قال لهم المسيح: لا تعتدوا فإذا بهم يحوّلون الصليب راية للغزو والقتل والاستدمار. وإذا بجيوشهم تغزو البلاد والعباد. وإذا يبيدون الهنود الحمر وشعوب آسيا وأفريقيا يقطعون آلاف الأميال ليسلبوا النفط من العراق والخليج ويتسلطوا على أفقر شعوب الأرض في أفغانستان وجنوب الفلبين وجنوب تايلاند. فهل كان المسيح يمثلهم؟ أم أن موسى عليه السلام أمرهم بإبادة المسلمين في فلسطين؟

لقد كان كتاب موسى عليه السلام وكتاب عيسى عليه السلام مصدرين حقيقيين لدور رسالي مرسوم لكن موسى والمسيح عليهما السلام لم يبعثا في لندن وواشنطن وسدني. فهما بعثا من منطقة عربية، برسالتين، في جوهرهما دور إنساني قيمي. ولأنهما كذلك حاول هؤلاء المنحرفون أن يزينوا خداعهم بحب ونفاقهم بصدق. لكنهم لم يستطيعوا. ولشدة حقدهم على الرسالتين شوهوهما ونسبوا إليهما كل ما هو ضال منحرف. لقد أرادوا النبي موسى عليه السلام قائداً محارباً عنصرياً يسفك الدماء. وأرادوا المسيح عليه السلام أمريكياً يبيح زواج المثلين وعبادة الشيطان وقتل كل من هو ليس أبيض.

الإسلام والدور الرسالي:

ثلاثة مكونات امتزجت فصنعت الإنسان الرسالي. الأرض، الإنسان، والإسلام. فلا عروبة من دون إسلام ولا إسلام دون دور عربي أساسي. ولا عروبة وإسلام دون أرض عربية.

تلك مكونات الرسالة التي بدأها أول نبي في هذه الأرض وسار على منهاجها الإلهي جميع الأنبياء حتى تسلم خاتمتها النبي محمد ﷺ. ورسم خالقها لها الطريق، طريق الرسالة الإنسانية العالمية. لم ينقطع الدور الرسالي للمنطقة العربية. وحين أراد الله أن

تنتصر قيم الحق والعدالة والحرية لشعوب الأرض، انتصر العرب الرساليون، وحققوا معجزة التحدي وتحرير الشعوب من عبادة الملوك ومظاهر الطبيعة إلى عبادة الله الواحد الأحد، انتصر العرب لرسالة موسى عليه السلام وانتصروا للمسيح عليه السلام ولكل الأنبياء ورسالاتهم السامية. وهكذا فهموا دورهم الرسالي وهم ينطلقون شرقاً وغرباً، فبنوا الحضارة وخرج منهم العلماء والفلاسفة وصدروا للعالم كله قيم الإنسانية العالمية.

إن معطيات الدور الرسالي في الماضي تلخص لنا قاعدة ثابتة، لا يمكن لأي من شعوب الدنيا نكرانها ، وهي أن الأرض العربية منبع الرسالات، يدين لعقائدها معظم سكان الكرة الأرضية. أما معطيات هذا الدور في الحاضر وفي المستقبل، فهي قائمة أساساً على القواعد الإيمانية والأخلاقية التي لا تزال حية في القرآن الكريم. فهي تتوافق مع النظرة البشرية أولاً، وهي التي تتوافق مع كل الحلول لمشكلات الإنسانية المستعصية ثانياً.

وحين نقول: إن للأمة دوراً رسالياً لا يزال قائماً وسيبقى، فإننا ندرك أن ما بثه الإسلام من تعاليم عقدية وأخلاقية لا يزال يفعل فعله في عملية المحاكمة العقلية البشرية. ولأن هذه التعاليم تتوافق مع الفطرة الإنسانية فإن قبولها وتقبلها أسهل بكثير مما يتصور العقل البشري. لذلك نرى اليوم في أوروبا وغيرها حركة فكرية عقلية واسعة، تحاكم الماضي والعقائد التي شُوّهت وتحاكم الانحراف عن الفطرة، وتقبل على الإسلام بقناعة عقلية نفسية. وليس بإقناع جبري يفرض، أو بتوارث تقليدي أسري أو قبلي.

ولا شك أن نقل الأفكار والعقائد والفلسفات لا يتم بالدرجة الأولى إلا من خلال من يحملها وينشرها على حقيقتها دون تزييف أو كذب أو مبالغة. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه الدور الرسالي لهذه الأمة ونعتقد أن الهجوم الغربي الصهيوني على العروبة والإسلام صنعته جهات عدة وساهمت في توسعه حركات غير أخلاقية، وأفراد امتلكوا المال والنفوذ، ورسموا العروبة والإسلام في نظر الغرب صورة مغايرة تماماً لما هما عليه.

الدور الرسالي والهجوم المعاكس:

تزداد الهجمة اليوم على العروبة والإسلام. ويظهر أن هذه الهجمة سيطول وقتها وستتركز على الإسلام. فلا البوذية في البال، ولا الهندوسية في الحسبان. ولا أي عقيدة أسطورية

وثنية أو وضعية يحسب حسابها. فقط يصنع الفكر التعصبي الغربي، والفكر الصهيوني العنصري عدواً واحداً في عقله وتوجهه. هذا العدو هو ما يمثله الإسلام وعروبته.

لماذا يخترعون عدواً واحداً لهم في الكرة الأرضية؟

لو وجهنا هذا السؤال لهم. لماذا تفترضون أن الإسلام هو العدو بعد انهيار الشيوعية؟ فبماذا يجيبون؟ هل ينكرون العداء من أساسه، أم يقولون: إن الذين يصرخون بالعداء للإسلام لا يمثلون الكلّ من الغربيين؟.

أم أنهم ـ حسب مزاجهم ـ يفرقون الإسلام إلى إسلامين، إسلام وإسلام، يقولون إن هناك إسلاماً معتدلاً وإن هناك إسلاماً إرهابياً متطرفاً؟

فالهجمة التي تشتد يوماً بعد يوم على العروبة والإسلام ليست ردة فعل، ولا هي هجمة فردية شاذة، إنها بكل أبعادها هجمة على الدور الرسالي الذي يختزنه أبناء العروبة والإسلام ويتخوفون من أن يحول الفكر الإنساني إلى منهج الفطرة الإنسانية التي أرادت الحركة الصهيونية وجهات غربية متنفذة أن يبقى هذا الفكر منحرفاً لتحيا على انحرافه وفساده المصطنعين. وحجم الهجمة بقدر حجم المستهدف، ولولا أن الدور الرسالي لهذه الأمة كبير ومهم ومؤثر على المستوى الكوني لما كانت هذه الهجمة بهذا الحجم وهذه الشراسة.

وإذا نظرنا إلى خارطة هذه الحملة التي تقودها الأوساط الصهيونية والعنصرية وجدنا أن عنوانها هو الحرب على الإسلام والمسلمين، تحت ذريعة الحرب على الإرهاب. وتمتد الحملة من أمريكا إلى أقاصي روسيا وأستراليا وإلى غرب أفريقيا. إضافة إلى تمددها العملي في بعض الأقطار العربية والإسلامية. ولا تتوقف الهجمة عند أسلوب واحد أو اتجاه واحد. فقد تعدت الهجوم المباشر إلى طرح تغيير مناهج التربية، وتغيير النظرة إلى التراث وحرف المدارس الدينية عن أهدافها وغاياتها. ونشر كل ما من شأنه إضعاف الإسلام في روح العرب والمسلمين. وتقوية الثقافة الغربية المادية بدلاً منه.

إن الدور الرسالي لهذه الأمة يعني في الفهم المعادي تحطيماً لرأس المال الظالم وتراكم الثروة في فئة رأسمالية. ويعني أيضاً تصفية العبودية التي تتمثل بالإنسان الآلة. ويعني أيضاً القضاء على التوجه الاستعماري واستعباد الشعوب.

كل ذلك يتناقض مع المصالح الصهيونية اليهودية ومصالح تجار الحروب والرأسمالية العالمية والديكتاتوريات المحلية المتخلفة. ويتناقض كذلك مع مصالح الحاكمين بأمر الأمم من زعماء القبائل والإقليميات الضيقة.

ولو كان أصحاب الهجوم العالمي الشرس يعرفون أن هذه الأمة لديها قابلية للاستعمار لما شنوا هذا الهجوم عليه. فهم يدركون أن الدور الرسالي لهذه الأمة يتناقض كلياً مع القابلية للاستعمار. ونعتقد أن البون شاسع بين هذا الدور الرسالي وبين القابلية للاستعمار.

الدور الرسالي وآفاق المستقبل:

إذا أدركنا أن دور الأمة الرسالي بدأ منذ زمن أول نبي في المنطقة العربية الإسلامية فإننا نؤمن أولاً بأن هذا الدور الذي قدم للإنسانية كلها معالم الثقافة والفكر والحضارة قادر على أن يقدم شيئاً في المستقبل المنظور والبعيد.

ولكن كيف يمكن أن يقدم الإنسان العربي هذا الدور، وكل المؤشرات الحاضرة تميل إلى انسداد الأفق، بل تلونه بالسواد وتلفه بالتشاؤم والتراجع والتفكك والانحلال. إضافة لتكاتف الأعداء وكثرتهم وامتلاكهم كل أسباب القوة المادية المتفرقة. وتكالبهم على الأمة كما تتكالب الأكلة على قصعتها؟

ثم ما الذي يملكه الإنسان العربي المسلم حتى يقدم للإنسانية شيئاً مما تتقدم به الإنسانية؟

في مجال الفكر والمفاهيم:

في فكر الأمة وتراثها رصيد هائل من الأفكار والمفكرين والعلماء المسلمين المتخصصين في مجالات شتى. وقد بلغوا الدرجات الأولى في وضع بصماتهم في الفكر الإنساني. علاوة على تصديهم لأفكار التغريب والغزو الفكري الاستعماري.

ربما لا نشعر كثيراً بوجود هؤلاء في مجتمعاتنا، ولكننا حين ندرس العالم الغربي نجد أن الاهتمام بما يطرحه علماؤنا ومفكرونا يبلغ مداه، لاسيما في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية على الرغم من أن أوساطاً تعصبية ولا سيما الصهيونية منها تتصدى بكل قوتها

وتأثيراتها لنشر المفاهيم العربية الإسلامية. وتحارب دعاتها من خلال حملات التشويه والتشهير ومن خلال وسائل إعلامية كثيرة.

إن الفكر الإسلامي يمتلك منظومة متكاملة من القوانين والمفاهيم والمعايير تعكس ما تريده فطرة الإنسان. فالديمقراطية الغربية ليست قدراً إلهياً يجب التسليم له، لأن نظرة الفكر الإسلامي كما هي في القرآن الكريم أعلى بكثير من هذه الديمقراطية الغربية.

إن النصوص الأساسية للفكر الإسلامي لا تكرس تنافس حزب جمهوري وديمقراطي ولا تكرس تنافس عمالٍ ومحافظين. فالتنافس بين القدرات والكفاءات يتم على أساس الأصلح والأقدر والأكثر وعياً وتحملاً للمسؤولية. وهذا في إطار الحكم والسلطة وفي إطار العدالة الاجتماعية، فإن الفكر الإسلامي كما في نصوصه الأساسية في القرآن الكريم والسنة الشريفة والاجتهاد والقياس يساوي بين الناس في الحقوق والواجبات، وحرية الرأي والتعبير مشروطة بألا تكون مضرة للمجتمع هدامة لحياته وسلوك أفراده. وهذا الفكر رسخ مفهوم الحرية الدينية، وكذلك النفسية ووعى تماماً أن هذه الحرية لا تؤدي إلى فهم مغلوط للسلوك الفردي، فالحرية ليست هي الفوضى وليست هي الإضرار بالآخرين تحت شعار أنا حر إذاً أنا أفعل ما أشاء.

لقد أصبح في عرف الفكر الأمريكي أن لا يصعد إلى سدة الرئاسة إلا البروتستانتي الأنجلوساكسوني وهذا العرف وإن لم يدوّن كقانون في دستور الولايات المتحدة إلا أنه أصبح عرفاً كالقانون يتعامل به الكونغرس الأمريكي (مجلس الشيوخ والنواب) ويتعامل به مع كافة الأوساط الفكرية الأمريكية فكيف يمكن أن يجري هذا العرف في المنطق الإسلامي المستند إلى النص القرآني الإلهي القائل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(الحجرات: 13). وفي جوهره يقول لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. وتطول هذه المنظومة المتكاملة من هذه القوانين والمفاهيم ولا تتوقف عند حدود.

أما في مجال الإبداع العلمي المعاصر فإننا لو أحصينا الكوادر العلمية والفنية العالية التي تعمل في حقول العلم والتكنولوجيا والطب والصناعات الدوائية والاختراعات

بأشكالها كلها في العالم الغربي وجدنا أن العنصر المسلم يشكل حالة ملموسة وثقلاً مهماً فيها. ولا يكاد بلد أوروبي أو أمريكي يخلو من هذا الكادر المسلم. فكيف نفتقد لهذا الكادر؟ لماذا لا يكون في موقعه الرسالي العربي الإسلامي؟ صحيح أننا نعتز بوجود الآلاف من الكوادر العلمية المهاجرة والفاعلة في المجتمعات الغربية وتطورها، ولكننا ـ ونحن نواجه مقولة القابلية للاستعمار ـ لا بد لنا من حشد طاقاتنا جميعها في تطور أمتنا ودورها الرسالي في هذا العالم.

إن سياسة الدول العظمى تقوم على احتكار التطور العلمي والصناعي وسرقة العقول والكوادر العلمية والفنية. وإذا كنا فعلاً نمتلك الإرادة ونعتز بهويتنا نستطيع أن نحافظ على ثروتنا من العلماء. ونطور دورنا الإنساني ليكون محوراً أساسياً من محاور الحضارة الإنسانية العالمية.

إن هناك من الأسباب ما يدفع كادرنا العلمي للهجرة والعمل في عوالم أخرى، وإزالة هذه الأسباب ليست بعيدة التحقيق طالما تمتلك الأمة رؤية صحيحة لدور الفرد في المجتمع دور المجتمع في الفرد ودور الأمة في هذا الوجود.

إن من الحجج التي يصرخ بها مروجو مقولة القابلية للاستعمار دفع الكادر العلمي المسلم للهجرة بعيداً عن وطنه بشكل مباشر قمعي أو بشكل غير مباشر من خلال انسداد أبواب العمل المناسب.

فإذا كانت المسألة صحيحة في وجه، فإنها في وجه آخر ليست صحيحة، لا شك أن أسباباً أخرى تكمن وراء هجرة كوادرنا العلمية، منها الميل إلى الانبهار بالغرب المادي ولا يخفى علينا كم تصرف الدول الغربية من المليارات حتى تسرق العقول والكوادر المهمة من عالمنا العربي وذلك من خلال الدعاية والإعلام والإغراءات المادية المذهلة التي تلعب دورها في خلق هذا الميل.

ومنها أيضاً محاربة الكادر العلمي الذي يبرز في المجال العلمي الإستراتيجي من قبل دوائر الاستخبارات الصهيونية وغيرها. وما دام هذا الكادر يعمل في الدول الغربية فهو في مأمن من القتل والتصفية لكنه إذا حاول أن يطور في بلده العربي أو

الإسلامي فإن أي فرصة تتاح لتلك الدوائر لن تترك فيها دون تصفية. والشواهد كثيرة عن بعض علماء الذرة الذين حاولوا أن يعملوا في بعض البلاد العربية على تطوير القدرات المحلية في تكنولوجيا المجال النووي (مثال: العالم الذري المصري المشد).

على كل حال، فإن الدور الرسالي لهذه الأمة ليس محدوداً أو ضيقاً، فهو رحب واسع، لكن المروجين لمقولة القابلية للاستعمار يريدون أن يطعنوا هذا الدور من الظهر، بل يريدون أن يطحنوا رسالة الأمة الإنسانية. ونعتقد أن الحقد الذي بلغ مداه لدى الأوساط الاستعمارية المشبوهة يجند أبشع المروجين وأشدهم كرهاً لهوية هذه الأمة وحضارتها ودورها الذي بدأته منذ زمن بعيد، ولا تزال متحفزة لاستمراره على الرغم من كل المحن والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية القاهرة.

إن الدور الرسالي الذي يختزنه أبناء الأمة الغيورون على أمتهم ليس بمنأى عن الحرب الإعلامية والنفسية، وليس أبناء الأمة بمنأى عن الطعن والتشويه والتصفية النفسية والعقلية قبل الجسدية، لكن قدر هذه الأمة أن يكون لها دورها، ولنا من التفاؤل ما يبرره، وعلى المروجين لمقولة القابلية للاستعمار أن ينشغلوا ليلهم ونهارهم في تفسير هذا التفاؤل ما يبرره، وعلى المروجين لمقولة القابلية للاستعمار أن ينشغلوا ليلهم ونهارهم في تفسير هذا التفاؤل وتحليل تبريراته.

الإسلام وإنسان هذا العصر:

مما لا شك فيه أننا عندما نؤكد أن للإنسان المسلم دوراً رسالياً يتناقض مع مفهوم القابلية للاستعمار ندرك أن الإسلام ذاته ينفتح على الإنسان كإنسان مهما كانت عقيدته ومهما كان جنسه أو عرقه. وهذا الانفتاح يركز في جوهره على تعريف الإنسان بذاته أولاً وعلى تبصيره بالحلول الشافية لمشاكله ثانياً.

لكننا لابد أن نواجه بسؤال قد يكون مقصده سلبياً وقد يكون مقصده خبيثاً.

هل يصلح الإسلام لحل مشاكل الإنسان المعاصرة؟ أم أنه تأخر عن هذا الإنسان ولم يعد يصلح لحل مشاكله؟

كيف نفهم الإنسان المعاصر بعد أن سابق الوقت في فكره وعلمه واختراعاته، وبعد أن حارب الدين واتبع هواه في سلوكه وعواطفه وأفكاره.

واقع الأمر يقول لنا إن ترويجاً غربياً صهيونياً اكتسح وسائل الإعلام والثقافة بمقولة عدم صلاحية الإسلام لهذا العصر وإنسان هذا العصر. وهذا الترويج وصل إلى القلب من الأمة العربية والإسلامية. وباختصار يريدون نسف هذا الدين بأي شكل من الأشكال.

إذا وضعنا إنسان هذا العصر تحت الفحص والتحليل لابد أن نجد فيه انقساماً في عقله وسلوكه وعواطفه. والعقل والنفس والعواطف يحتاج كل منها لوقفة تحليلية. نفتش فيها عن معنى الإنسانية. نفتش عن حركة العقل ومدى قدرتها على تحقيق معنى الإنسانية.

وفي الواقع لابد من الالتفات إلى هذه النقطة بالذات، لأن معنى الإنسان هنا لا يتوقف عند هذا الشكل البشري الذي خلقه الله سبحانه وأبدع في خلقه. إنما الإنسان الذي يقابل الحيوان. والإنسانية التي تقابل الحيوانية. الإنسان السلوكي الذي تتمثل فيه صفات المحبة والإخاء والتضحية ومنفعة الجميع. الإنسان الذي يرفض أي شكل من أشكال الاستعباد والقهر والاستعلاء.

إن هذا يأخذنا إلى الدائرة التحليلية لعلاقة هذا الإنسان بالمعاني الإنسانية التي نفهمها، فهل جسد هذا الإنسان بعقله صفة الإنسانية؟ هل جسد سلوكه الفردي والجمعي تصرف البشر العاقل المحب الروحاني؟ هل جسد هذا الإنسان هويته الإنسانية؟ فإذا كان الإسلام غير صالح لهذا الإنسان فما هو الصالح له؟ وهل تصرفاته السلوكية تجاه المجتمع والكون تدل على أنه إنسان حضاري عاقل؟

وبالمقارنة الحقيقية بين هذا الإنسان والحيوان، نستطيع أن نضع الميزان الحقيقي لنوازن بين النمطين أو بين المخلوقين.

فهوية الحيوان تدل على أنه حيوان. ولن يصبح شيئاً آخر. وكل ما يتصرف به من سلوك صحيح أو منحرف في نظرنا، يعيدنا إلى النظرة الأولى في الحكم عليه بأنه حيوان، وهو غير عاقل وغير محاسب.

أما الإنسان فيبدو أنه الأكثر قابلية للتغير والتحول، فالذي يطغى اليوم على سلوك هذا الإنسان هو قبوله ببعض الانحرافات الجسدية والفكرية والنفسية. فقد كاد شيطان المادة والمال والجنس يطغى عليه طغياناً شرساً. وبات السلوك الشائن المرفوض أمراً عادياً وفي الجزئيات نرى أن ما يحكم السلوك المنحرف لهذا الإنسان النفاق والكذب والحقد والكراهية والأنانية والغضب وعدم الصدق والحماقة. والأخطر من ذلك أن أنظمة الحكم السياسية العالمية باتت واقعة في وحل هذه السلوكيات الشاذة.

وبعد أن وقع الفرد وكذلك المجتمع في هذا المستنقع علت الأصوات تصرخ وتعلن أن هناك تدميراً شاملاً بدأ يهدد بني الإنسانية.

إذاً ما هو الحل قبل أن يدخل العالم في كهف مظلم ليس له نهاية، هل الحل في الفلسفة الوضعية التي تشهد اليوم طغيان قانون الغاية تبرر الوسيلة؟ أم الحل بالعودة إلى الأساطير والسحر وعالم الجنون؟ أم الحل بالانسحاب من الدنيا فالانتحار فالتدمير الكوني؟

هنا لابد من العودة إلى البداية لنطرح مرة ثانية السؤال الأساسي، هل الإسلام هو الحل؟

لو نظرنا في مجمل السلوكيات البشرية وآثارها لوجدنا أن الإسلام تناولها بالوصف والتحليل. ولم يترك سلوكاً إلا وأشار إليه، لكن الأهم من الوصف والتحليل هو أن هذا الإسلام حذر من الوقوع في السلوك السلبي وذلك من خلال النهي القطعي، أو التجنب. ومن خلال وصف النتائج الوخيمة على الفرد وعلى المجتمع وعلى العلاقات البشرية الكونية.

ويأتي سلوك الكفر في المرتبة الأولى من تلك السلوكيات السيئة المدمرة. فهذا الكفر ضد الفطرة الإنسانية التي فطر الله عباده عليها. لأنها في أساسها الإيمان وليس الكفر. والكفر والشيطان صنوان. وهما في جوهرهما انحراف العقل عن طبيعته وانغلاق القلب على تفاعلات متخبطة غير مستقرة.

يقول تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ (سورة المائدة 12).

ويقول تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ ﴾ (سورة البقرة: 171).

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (سورة النساء: 167).

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة الأنفال: 55).

ويقول تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ (سورة إبراهيم: 18).

ويقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾ (سورة النور: 39).

ويقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ (سورة محمد 12).

وإذا أحصينا مثل هذه الآيات لوجدنا العشرات منها. وهي تلخص الحالة النفسية التي يعيشها الذي كفر. فهو ضال السبيل لا يعرف ملامح طريقه. إنه ضائع تائه ضال في روحه ونفسه مثل شر الدواب وليس كالدواب العادية. وأعمال الذي كفر كالرماد الذي تلعب به الرياح وسراب في صحراء ثم إن الذي كفر يأكل ويشرب كما تأكل الأنعام.

فإنسان هذا العصر يقترب من الكفر كثيراً، ولذلك كانت هذه الصفات ملاصقة لحالة كفره وهذا يدفعنا بطبيعته للبحث عن البديل، وهو الإيمان، المناقض للكفر. فحتى يتخلص هذا الإنسان من التيه والضلال وحتى يكون متميزاً عن الدواب. وحتى يكون عمله نافعاً يمكث في الأرض وحتى لا يكون هذا العمل كالسراب. عليه أن يبحث عن بديل. وهذا البديل يطرحه الإسلام واضحاً ومكشوفاً وهو الإيمان.

يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (سورة البقرة: 257).

ويقـــول تعـــالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (سورة الرعد: 28).

ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (سورة الحج: 54).

فطريق الإيمان هو خروج من الظلمات إلى النور والمؤمن آمنٌ مطمئن قلبه. وهذا هو السبيل لخلاص الإنسان من الضلال ومن اضطراب القلب والنفس والخوف والرعب وعدم الأمن.

وإذا كان الكفر في رأس قائمة السلوكيات المشينة فإن ما يندرج في سلمه الكثير الكثير من تلك السلوكيات. فنرى من ذلك اليأس وإضمار الشر والنفاق، والخداع والإحباط والصراع النفسي والغيبة والنميمة وسوء الظن والبغضاء والغضب والعداوة والمكر والقلق السلبي. وجميع هذه السلوكيات النفسية المنشأ تسيطر اليوم على إنسان العصر فتجعله أبعد ما يكون عن إنسانيته التي أرادها الله له.

فالشعور باليأس من أهم مسببات الاكتئاب النفسي الذي أصبح من سمات إنسان العصر الحديث وذلك بسبب تعرضه شبه المستمر للضغوط النفسية، والتوتر. وعوامل الإحباط. ومما يلفت النظر أن هذا اليأس يؤدي إلى الانتحار. والشواهد على ذلك كثيرة خاصة في العالم الرأسمالي القائم على الاستغلال.

فالله سبحانه ينهى عن اليأس بقوله: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (سورة يوسف: 87).

أما إضمار الشر واستخدام سواد النفس بذلك، أي جعل النفس رهينة الحسد والإيقاع بالآخرين، فإنه من أسوأ السلوكيات المعاصرة التي تفشت بين الناس. لذلك نهى الله عن مثل هذه الأعمال لأنها تدل على ما في النفوس من حسد وبغض وكراهية الخير للآخرين وتمني زوال النعمة عنهم.

أما النفاق فإننا نجد فيه صورة نفسية أخرى من الصور السيئة للسلوك البشري المعاصر، والواقع أن النفاق عمل معاكس مضاد للأحاسيس الداخلية. فالمنافق يُظهر أمراً ويخفي آخر بحيث يكون ما يظهر يكذّب ما يبطنه وكذلك العكس.

وقد قال تعالى واصفاً حال المنافقين:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ (سورة البقرة: 8 ـ 10).

وإنسان العصر مريض بهذا الداء فهو يخدع نفسه لأنه لا يتصرف بإرادته بعد أن سلّم نفسه لرغباته ودوافعه اللاشعورية.

ولعل الخداع أيضاً من أمراض إنسان هذا العصر، وهو سلوك مشين مقترن بالنفاق. ومن معاني الخداع حب المكروه بالآخرين واستخدام الحيلة والكذب والتزييف وقلب الحقائق للتغرير بالآخرين والإيقاع بهم.

ويشير القرآن الكريم إلى مظهر آخر من مظاهر السلوك السيئ لدى الإنسان وهو الإحباط ويعني التوقف عن أي نشاط هادف للعمل مما يؤدي إلى عدم بلوغ الهدف مع ما يتبع ذلك من آثار نفسية نتيجة الشعور بالفشل والهزيمة. وأشار القرآن الكريم أكثر من مرة لأسباب هذا الإحباط كمرض يصاب به الإنسان. ومن أسبابه الإشراك بالله.

ولعل من أخطر الآفات المصاب بها إنسان هذا العصر الصراع النفسي، وهو يعني وجود قوى نفسية متنافسة ومتعارضة في الإنسان مما يجعله يقع في الحيرة والارتباك ويعجز عن اتخاذ القرار المناسب في حينه. وتبدو صورة الصراع في عمليات الجذب والدفع التي تنتج عن الاتجاه نحو الهدف ثم التراجع في الاتجاه الآخر مما يجعل الإنسان مذبذب الرأي ومتناقض المشاعر.

يقول تعالى واصفاً ذلك: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ (سورة النساء: 143).

أما الغيبة والنميمة فهما لونان من ألوان الفساد بل الإفساد بين الناس. فالأولى ذكر الآخرين بما يكرهون وهي محرمة شرعاً. أما الثانية فهي التي تصدر عن نفس استعلائية حاقدة كارهة الخير للناس. وقد شهدنا ومازلنا نشهد مظاهر هذا السلوك

السيئ على مستوى الأفراد والجماعات والمجتمعات مهما صغرت أو كبرت. فهي من آفات هذا العصر وآفات إنسانه.

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾ (سورة القلم: 10 ـ 11).

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الحجرات: 12).

وقد أصبح الظن من أخطر صفات هذا العصر ومن أسوأ سلوكيات الإنسان المعاصر فالظن إلقاء التهم الباطلة على الآخرين بشكل مقصود دون قيام دليل أو شواهد على ذلك ودون علم مسبق بحدوث ذلك يقيناً. وهذا ما نلمسه اليوم حتى على مستوى الجماعات والدول. وقد نهى الله سبحانه عن ذلك بقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (سورة الحجرات: 12).

والبغضاء بمعناها السلبي هي شدة الكراهية. والمجتمع الإسلامي ينادي بالعدل والمساواة والتعاون والتشاور والتحابب والتعاطف. والبغضاء استجابة نفسية سلوكية لدوافع الشر والحقد مما يؤدي إلى كراهية الخير للناس والسعي إلى الإيقاع بهم.

وحين ننتقل من السلوكيات إلى البناء الحضاري نقول أولاً إن الحضارة هوية. فهل حققت المنجزات العلمية والفكرية هويّة حقيقية لإنسان هذا العصر؟

حضارة الإنسان المعاصر ـ إذا سميناها حضارة ـ هي مادية بكل أسسها ومعانيها. وحقيقة الحضارة وجوهرها ليسا نتاجاً مادياً فحسب. إنما هي مجموعة قيم مترابطة متكاتفة. فالبناء المادي ليس بمعزل عن القيم الاجتماعية الإيجابية، وليست بمعزل عن الروابط العقدية بين الإنسان وعقيدته وبين الإنسان ومجتمعه.

ولذلك جاء الإسلام ليوازن بين المادي والروحي. وطالما أن الله سبحانه استخلف الإنسان في الأرض فإن الواجب المفروض عليه هو نشر القيم السامية أولاً، وعمران الأرض ثانياً حتى يكون هذا العمران نافعاً لتقدم الإنسانية جمعاء.

يقــول تعــالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: 77).

وطبيعة الإسلام في جوهرها هي طبيعة البناء لا التـدمير، والحـضارة لا التخريـب والقتل. ولما ابتعدت البشرية عن فطرتها ورفضت سنة الله في أرضه أصبحت تتجـه نحـو التدمير والتخريب والابتعاد عن الحس الحضاري الإنساني.

لقد كانت وما تزال الغاية الكبرى في الوجود الإنسان. فكل شيء سخّره الله له من بحر وفضاء وتراب وحيوان. بينما لو نظرنا إلى واقع ما يسمى الحضارة المعاصرة وجدنا أن الإنسان قد استعبد لغايات أخرى. وأصبح وسيلة مـن وسـائل غنـى فئـة قليلـة تـتحكم بالثروة الأرضية والقـدرة البـشرية. وبالتـالي فقـد تطـورت وسـائل الاسـتعباد وعمّـت وشملت شعوباً مستضعفة في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وحتى في كافة أنحـاء الكـرة الأرضية.

إن هذا الاستعباد جنون طغى على العقل الاستعلائي في بعض أجزاء العالم. وهـذا ما يرفضه الإسلام رفضاً قاطعاً. وإنسان العصر بحاجة إلى هذا الإسلام ليـشعر بالمـساواة مع غيره في الحقوق والواجبات وتقسيم الثروة الأرضية، لهذا كان المنهج الإسلامي يقـول على لسان رسول الله ﷺ (الناس شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار)[22].

ومن هذا المنطلق أخذ المسلمون على عاتقهم بناء حضارة إنسانية تركـز عـلى القـيم السامية والعلاقات الإيجابية قبل تركيزها على البناء والعمران. ويبقى الإنـسان في منهجـه هو الغاية وليس الوسيلة.

إننـا لا نتـصور حـضارة سـامية مـن دون الإسـلام وقـد جرّبـت الـشعوب كافـة النظريات الوضعية فلم تحقق التوازن بين المادة والروح وظل الإنسان فيها يتخـبط باحثـاً عن حلول جذرية دون جدوى.

ما الذي يعنينا هنا ونحن نناقش موضوع القابلية للاستعمار؟ وهل لهذا علاقة بذلك؟

لقد تحدثنا عن دور الإسلام ورسالته العالمية الإنسانية، وقلنا إن هذا الدور رسـمه الله سبحانه في قرآنه الكريم، والأمة المسلمة مكلفـة شرعـاً بالقيـام بهـذا الـدور. وعنـدما

نطرح علاقة الإسلام بالإنسان في هذا العصر لابد أن نؤكد أن هذا الدين رسم منهجاً كلياً متكاملاً لسعادة الإنسان.

فلماذا حارب الإسلام الكفر والنفاق والغيبة والنميمة؟ لماذا حارب الحيرة والخداع والشك؟ لماذا حارب كل السلوكيات النفسية السيئة والتي تغلغلت في المجتمعات الإنسانية كافة؟

نقول: لقد حاربها لأنه أراد للإنسان أن يكون حراً من عبودية المادة، أن يكون ذا كرامة وصدق واستقامة وتضحية وحب للآخرين. فإذا استعبدت الإنسان هذه السلوكيات السلبية أصبح مستعداً كي يكون مستعبداً لغيره. لذلك أراد الله سبحانه أن يكون الإنسان أقرب نفساً وجسداً وروحاً إلى مجموعة السلوكيات الإيجابية التي رسخها هذا الدين في قرآنه الكريم وسنة النبي ﷺ.

فالذي يرفض أن يكون مستعبداً للاستعمار أولى به أن يكون رافضاً لاستعباد الشيطان والسلوك السيئ.

إن الإسلام يعلمنا من خلال ذلك دروساً غاية في الأهمية، قد نظنها بعيدة عن مسألة القابلية للاستعمار، لكنها ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً .

فالمنافق فيه من الخلل ما يجعله قابلاً للاستعمار، والكافر فيه من الخلل ما يجعل لديه استعداداً للتحالف مع أعداء الأمة على حساب الأمة. والذي يلمز ويهمز ويرائي ويظن ظن السوء في إخوته لابد أنه واقع فريسة أمراض نفسية تجعله يخضع بسهولة لما هو أعظم من الأمور السيئة كالقابلية للاستعمار.

إن الدور الذي تتحمل مسؤوليته الأمة لا يتم إذا كان أفرادها مستعبدين لسلوكيات هدامة. وإذا كان ثمة تناقض بين الدور الرسالي للإسلام والقابلية للاستعمار فإن الأولى أن يكون ثمة تناقض بين الدور الرسالي للإسلام ومجموعة السلوكيات السيئة التي ذمها القرآن الكريم ورفض أن يتصف بها الإنسان أي إنسان.

1 ـ مستقبل الحوار مع أوروبا:

من الواضح جداً أن أوروبا التي شكلت في الماضي الطرف الأكثر صداماً مع منطقة الوطن العربي الإسلامي راحت تؤسس لنفسها دوراً مهماً على الصعيد الدولي،

خاصة بعد أن صار الاتحاد الأوروبي يضم أكثر من خمس وعشرين دولة أوروبية، تتعامل بعملة واحدة وباقتصاد مشترك وبتوجه سياسي إلى حد ما مشترك باستثناءات قليلة جداً.

ولعل مستقبل العلاقات مع أوروبا هو أقرب إلى الذهن وأقرب إلى الواقع العربي الإسلامي مع الأخذ بعين الاعتبار أولاً وأخيراً أن الأمة العربية الإسلامية ليست ذات قابلية للاستعمار.

كيف تنظر أوروبا إلى مستقبل العلاقة مع العرب والمسلمين؟

بالتأكيد لسنا هنا في مجال التنبؤ أو استباق المستقبل، لكننا من منظور تحليلي لعوامل الجغرافيا والتاريخ والعلاقات الاقتصادية والثقافية بين الأوروبيين وبين العرب والمسلمين نقول: إن العلاقات المستقبلية مع دول أوروبا هي أقرب بكثير من العلاقات المفترضة مع الولايات المتحدة.

ويبدو أن الدور الأوروبي الذي تحدده فلسفة أوروبا التقليدية يرى أنه يمكن أن تكون العلاقات مع العالم العربي والإسلامي أقرب إلى التحقيق. فأوروبا لم تعد تنظر إلى منطقة الوطن العربي على أنها فريسة يمكن الانقضاض عليها واستعمارها من جديد، والواقع يقول لنا إن ما يهم أوروبا اليوم هو الاقتصاد بالدرجة الأولى. فهي تريد تحقيق فتح الباب على مصراعيه لإنتاجها الاقتصادي حتى يدخل الأسواق العربية والإسلامية بشكل قوي جداً. والغرب يدرك أن الوطن العربي سوق واسعة للاستهلاك لا يمكن إغفاله. لا سيما في ظل التنافس الاقتصادي بين أمريكا وأوروبا والصين والدول الآسيوية الصناعية المنافسة كإندونيسيا وماليزيا وتايوان.

فمن ناحية الجغرافيا، لا يفصل أوروبا عن الوطن العربي سوى البحر المتوسط، وهذا يعني على المستوى الإقليمي شراكة جغرافية بين الطرفين، فاستقرار المنطقة يعني استقراراً ما في أوروبا، والتوتر فيها يعني القلق وعدم الاستقرار في أوروبا أيضاً. ولذلك نجد تبايناً في النظرة السياسية تجاه المنطقة العربية بين الأوروبيين والأمريكيين.

لقد ارتبطت القارة الأوروبية بالمنطقة العربية جغرافياً على مدى قرون طويلة منذ الصدام التاريخي الذي بدأ مع إخراج الرومان من الأرض العربية على أيدي المسلمين

زمن الخلفاء الراشدين. وليس بعيداً عن أذهاننا وجود العرب في الأندلس مدة ثمانية قرون. وما كان لذلك من أثر واضح على الثقافة والفلسفة والفن والدين، ولا ننسى أيضاً في هذا الإطار تمدد الدولة العثمانية المسلمة حتى أسوار فيينا. ودخول الإسلام في كثير من دول أوروبا الشرقية ودول البلقان.

كل ذلك لابد أن يشكل أهم ملامح العلاقات الأوروبية العربية الإسلامية، بمعنى أن العامل الجغرافي ـ عامل الجوار ـ لعب دوره في الماضي وسيلعب دوره في المستقبل، ويفسح المجال أمام علاقات أوسع وأقوى بين الحوض العربي والقارة الأوروبية.

أوروبا تحتاج لجغرافية الوطن العربي، كون هذا الوطن يقع وسطاً بين عدة أقطاب اقتصادية تتنافس وتتناحر على الوصول إلى المنطقة على المستوى الاقتصادي.

فهناك الصين والهند وإندونيسيا وماليزيا، وهناك روسيا التي ما تزال تحاول أن تبقى على صلات قوية مع المنطقة، وهناك الأطماع الأمريكية التي ترجمت نفسها من خلال غزو العراق ومحاولة جعله أنموذجاً للسوق الاستهلاكية من جهة وأنموذجاً للاستغلال النفطي من جهة أخرى.

إضافة لذلك، لابد أن نشير إلى المعابر المائية المهمة للنقل بين القارات، فأوروبا وبسبب قربها الجغرافي من المنطقة أكثر استخداماً لهذه المعابر من غيرها من الدول أو الكتل السياسية الاقتصادية.

ما شأن القابلية للاستعمار في هذا الإطار؟

من المؤكد أن التاريخ يلعب دوراً مهماً في تحديد العلاقات بين الشعوب، فأوروبا اصطدمت بالعرب والمسلمين منذ القرن الهجري الأول. وامتد الصدام إلى عصر الدولة الإسلامية زمن الأمويين والعباسيين. واشتد في زمن الحروب الصليبية حتى أخرج الأوروبيون من بيت المقدس ومن بقية أجزاء المنطقة. ومرة أخرى اشتد التصادم بدءاً من القرن العشرين واحتلت معظم أراضي العرب. وقامت الثورات والاحتجاجات حتى استطاع العرب نيل استقلالهم بالتتابع منذ استقلال مصر وحتى استقلال الجزائر واليمن الجنوبي.

وإذا كان الواقع العربي اليوم واقعاً سيئاً في جوانب فهو أيضاً واقع إيجابي في جوانب. صحيح أن بعض الأنظمة العربية وقعت في ورطة التحالف مع القوى الاستعمارية لكن ما ينبئ عنه الواقع في العراق وفلسطين وفي بعض الأقطار العربية يجعلنا نقول: إن الواقع إيجابي في بعض الجوانب.

إن الغرب يدرك بشكل عام أن الوضع الديمقراطي ـ حسب فهمهم ـ سيئ في المنطقة العربية، لكنهم يدركون بعد التجربة الطويلة أن الشعب العربي لديه من المخزون العقدي والتاريخي والشخصي ما يجعله ينتفض ويغير الكثير من الأوضاع. وهذا المخزون يدفعه دوماً للدفاع عن هويته وأرضه وثرواته. وهو مؤهل بسبب ذلك ليقود مرحلة جديدة من حياة الأمة. وبمعنى من المعاني ليس لهذا الإنسان العربي والمسلم قابلية للاستعمار.

وبدرك الغرب هذه الميزة لدى الإنسان العربي، فلذلك تنأى الدول الغربية عن الأسلوب القديم للاستعمار وترى أن الحل المستقبلي مع العرب هو إقامة علاقات اقتصادية وثقافية تحفظ لكل شخصيته وطموحاته وتطلعاته نحو العلاقة مع الآخرين.

ولذلك أيضاً تطرح أوروبا اليوم عدة مشاريع وبرامج للعلاقة مع منطقة الوطن العربي كالشراكة الأوروبية المتوسطية. أو الشراكة الأوروبية العربية، حيث تقدم الدول الأوروبية تصورات كثيرة للعلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية مع العرب.

إن هذا التطلع الأوروبي للعلاقات المستقبلية مع العرب والمسلمين ينم عن فهم ما للدور الذي تقوم به أوروبا لتحسين الأوضاع في المنطقة. وينطلق من مبدأ الإمكانية المتاحة للحوار وبناء الجسور، وعلى العكس من نظرة الولايات المتحدة التي ترى أن كل ما عداها هو قابل للاستعمار ويجب أن يُستعبد بالقوة.

وحقيقة أن التشابك الحضاري والثقافي بين أوروبا والعالم العربي الإسلامي يجعل العلاقات المستقبلية أكثر قرباً وأكثر تحقيقاً وتوازناً. وإذا كان هذا الكلام عاماً فإن تفاصيل العلاقات يحددها احتياج كل طرف لأمور لا تتوفر له. فالغرب بحاجة إلى بترول العرب، بحاجة إلى أسواق العرب الاستهلاكية. وبحاجة لمراتهم المائية وموقعهم الإستراتيجي

وثرواتهم المالية الضخمة إضافة لثقافتهم الدينية والحضارية. والعرب بحاجة إلى التقدم الصناعي، بحاجة إلى التكنولوجيا والمصانع الحديثة، والآلات الثقيلة، وبحاجة إلى التطور التقني الطبي والعلمي في كافة المجالات.

ولا نعتقد أن أحد الطرفين يستغني عن إمكانات الآخر، فكل يقدم ما لديه حتى يكون التكافؤ في التعامل سيد العلاقات المستقبلية المأمولة.

إن العلاقات الأوروبية العربية قديمة وفيها من التدافع والتقارب ما يدفع الشعوب للبحث عن علاقات طيبة فيما بينها، تقوم على الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة، ولا نعتقد أن الغرب سينجرف وراء مقولة صدام الحضارات التي نظَّر لها المفكرون والسياسيون الأمريكيون. فالفهم الأوروبي لطبيعة الشرق العربي والإسلامي تختلف عن الفهم الأمريكي اختلافاً جذرياً. لأن كلا التجربتين متباينتان مختلفتان.

ولهذا فإن رؤيتنا لمستقبل العلاقة مع أوروبا تختزن من التفاؤل أكثر مما تختزن من التشاؤم. ولعلنا ونحن نتفاءل بمستقبل هذه العلاقات نأمل من أوروبا أن تفهم أكثر فأكثر دور المسلمين المهاجرين إلى أراضيها. وأن تنظر إليهم نظرة إنسانية بعيدة عن الشكوك والظنون السيئة. وأن تعيد النظر في معاملتها الأمنية معهم، لا تعاملهم على أساس الأحكام المسبقة، لا تلصق بهم تهمة الإرهاب دون دليل.

ونعتقد أن هذه العلاقات التي يمكن أن تسود بين الأوروبيين والعرب والمسلمين قد تتطور وبسرعة لأن معظم العقبات ليست سوى قضايا يمكن حلها وليست مستعصية على الطرفين، والأهم من ذلك أن أوروبا اليوم تقع تحت الامتحان والاختبار فلا مجال لها أن تفكر بعقلية المستعمر التي كانت عليها قبل مئة عام، لأن الأمة العربية والإسلامية ترفض القبول بالاستعمار مهما كانت أشكاله.

2 ـ مستقبل العلاقات بين العرب والمسلمين والولايات المتحدة الأمريكية:

هنا تبدو المسألة أكثر تعقيداً مما عليه العلاقات بين المسلمين وأوروبا، وذلك للأسباب التالية:

أ ـ ليست هناك جذور للعلاقات السياسية الحضارية كون الولايات المتحدة دولة حديثة لم يبلغ عمرها الأربعة قرون.

ب ـ نظرة الولايات المتحدة للعرب والمسلمين وحتى بقية شعوب آسيا وأفريقيا نظرة عنصرية فوقية، ترى جميع شعوب العالمين الأفريقي والآسيوي متخلفة تستحق أن تستعمر.

ج ـ تحكم عقلية الولايات المتحدة أساطير دينية تربط الرؤية التوراتية الصهيونية بالسياسة الخارجية. ولذبك نجد الولايات المتحدة تدافع عن اليهود أكثر من دفاعهم عن أنفسهم.

د ـ التحالف المصيري بين الولايات المتحدة والكيان الإسرائيلي، وعدم اعتراف الولايات المتحدة بحق العرب والمسلمين بفلسطين والمسجد الأقصى.

هـ ـ تحكم الولايات المتحدة قوانين الاقتصاد والمنفعة وليس قوانين الحوار الأخلاقي والثقافي والديني، وهي بذلك تنظر إلى منطقة الوطن العربي على أنها منبع الثروات البترولية وحسب.

و ـ الهجوم العسكري الواسع التي تعرضت له بعض البلدان العربية المسلمة كأفغانستان والعراق، وكثرة الضحايا من أبناء الشعوب المسلمة بسبب القتل والإبادة الأميركيين.

ز ـ ليس في نظرة الولايات المتحدة سوى سبيل واحد للتفاهم بين الشعوب وهو سبيل العصا الغليظة. بمعنى أن سياسة هذه الدولة تقوم على فرض رؤيتها بالقوة المسلحة مهما كانت الضحايا ومهما كانت النتائج، لأنها تنظر لنفسها على أنها القوة الوحيدة في العالم التي تستطيع أن تضرب هنا وهناك دون أي رادع أو حساب.

فكيف يمكن أن يكون مستقبل العلاقات مع الولايات المتحدة إذا بقيت هذه الأسباب حية، وموجودة بشكل قوي في الولايات المتحدة الأمريكية؟

ليس من السهل الجواب على هذا السؤال لأن فيه الكثير من الإشكالات والتعقيدات، ولعل أكثر أبناء الأمة العربية والإسلامية سيجيبون دون أي تمهل بأن لا علاقة مع الولايات المتحدة طالما أنها لا تهدأ ولا تتوانى في قتل العرب والمسلمين وتهدد

الجميع بالقتل والفناء وتقدم للقوات الصهيونية كل الأسلحة الفتاكة لقتل وإبادة الشعب الفلسطيني.

والواقع أن ما قدمته الولايات المتحدة من إرهاب ومجازر بحق المسلمين والعرب يجعل التفاهم صعباً بينها وبينهم.

ولكن مع كل هذه الملاحظات لابد لنا أن نطرح المسألة بمعايير أخرى ترتبط إلى حد بعيد بالأسباب التي ذكرناها. فإذا استطعنا أن نلغي هذه الأسباب فإننا سنصل إلى فتح الباب لإقامة علاقات ما مع الولايات المتحدة.

فإذا تجاوزنا السبب الأول واعتبرنا أن التطور التكنولوجي الحاصل في الولايات المتحدة مؤهلاً للتفاهم بين أمريكا وحضارة المسلمين نقف أمام الأسباب الأخرى وقفة طويلة تحتاج لتمعن وإعادة نظر وتحتاج لإعادة تقييم من قبل الشعب الأمريكي نفسه.

فالنظرة العنصرية الفوقية التي رسخها زعماء الولايات المتحدة في عقلية شعبها تجاوزت حدود الفهم الحقيقي للتعاون بين الشعوب. فكثيرة هي التنظيرات الأمريكية التي قال بها هنتغتون وغيره حول صراع أمريكا مع الحضارة الإسلامية والإسلام بحد ذاته. وقد اخترعوا عدواً بعد العدو الشيوعي حتى يحققوا دوماً تخيلاتهم عن عدو مفترض دائم.

يقول الصحفي دافيد برساميان:

(كما تعرف هناك هياج وغضب وارتباك في الولايات المتحدة منذ أحداث 11 أيلول. لقد حدثت جرائم وهجمات على المساجد، حتى معبد السيخ لم يسلم منها. وفي جامعة كولاورادو هنا في بلدر وهي المدينة ذات السمعة الليبرالية وجدت عبارات كتبت على الجدران تقول: أيها العرب عودوا من حيث جئتم، اقصفوا أفغانستان، عودوا إلى أوطانكم أيها العبيد الصحراويون)[23].

(علينا ألا ننسى أن الولايات المتحدة ذاتها دولة إرهابية رائدة)[24].

وبغض النظر عن تقييمات بعض المفكرين المضادين لسياسة الولايات المتحدة إلا أن هذه الدولة جسدت الحقد على الإسلام ـ العدو المفترض ـ من خلال تغذية الشعوب

بالعداء للمسلمين ومن ثم شن الحرب عليهم في أفغانستان والعراق. ودعم إسرائيل للقضاء على الشعب الفلسطيني وتهديد الأقطار العربية المجاورة لفلسطين.

وإذا نظرنا إلى مجمل المواقف الفكرية والسياسية للولايات المتحدة وجدناها تنحو منحى التمييز بحيث ترى أن العرق الأنجلوساكسوني هو الذي يجب أن يسود العالم. وما عداه شعوب متخلفة يجب أن تستعبد.

فحتى تفتح العلاقات الإنسانية بيننا وبين الولايات المتحدة لابد من تغيير هذه النظرة لدى السياسيين والمفكرين الأمريكيين. ولن يتم هذا التغيير إلا إذا أعاد الشعب الأمريكي قراءته الصحيحة للإسلام وحضارته ودور المسلمين في تحقيق التفاهم والسلم العالمي. ونزع هذه النظرة من العقول والنفوس.

ربما نكون متشائمين حينما نرى أن إعادة انتخاب الرئيس الأمريكي بوش يعني انتخاب المحافظين المتعصبين في الولايات المتحدة، بل يعني انتخاب الفئة الأكثر تعصباً ضد الإسلام والمسلمين وهذا يذكرنا بالمجتمع الإسرائيلي الذي أصبح مع وجود شارون أكثر عصبية وأكثر تطرفاً ضد العرب والمسلمين في فلسطين.

لقد استطاع بوش وأركان حزبه الجمهوري أن يزرعوا في عقول الشعب الأمريكي فكرة إلصاق الإرهاب بالإسلام. وهيمنت الحالة الأمنية على نفوسهم وهذا يدل على المستوى الثقافي المتدني للشعب الأمريكي ولا يدل على مستوى راق من الثقافة الإنسانية. وهذا ما يؤكد فتح الحوار مع الأمريكيين الذين ارتضوا التعصب على الانفتاح. وارتضوا شن الحرب على العرب والمسلمين بدلاً من التعاون والتواصل والمساعدة على حل المشاكل العالقة. وارتضوا أن يرموا بكل ثقلهم على جانب الظلم الإسرائيلي ضد المظلوم من العرب والمسلمين.

أما التعصب الديني فقد بات واضحاً أن المحافظين الجدد الذين تبنوا الأفكار البروتستانتية المتعصبة قد أغرقوا غالبية الشعب الأمريكي في بحر من الأساطير الدينية التوراتية التي يقود ترويجها نخبة من المفكرين المتعصبين البروتستانت والذين وجدوا في بوش الرجل المناسب لتنفيذ نبوءاتهم الحربية والدموية التي تقتضي شن الحرب على المسلمين باعتبارهم العدو اللدود للصهيونية ومن لف لفها.

إن هذا التعصب الديني دفع السياسة الأمريكية للتحالف غير المحدود مع الكيان الإسرائيلي. بل وصلت المبالغة بالدفاع عن الظلم الصهيوني حداً أدهش الأوروبيين أنفسهم الذين يعتبرون حلفاء الولايات المتحدة العسكريين منذ الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم. خاصة في القوانين التي سنها المحافظون الجدد والقاضية بمعاقبة أي شخص أو دولة في العالم إذا ثبت أنها تعادي السامية، ويعني بالطبع معاداة اليهود تحديداً. فكيف يمكن أن تكون عليه العلاقات المستقبلية بين المسلمين والعرب من جهة والولايات المتحدة من جهة ثانية؟ إن العلاقات التي نتصورها ممكنة إذا ما تخلصت الولايات المتحدة من المعتقدات الخرافية الدينية التي تحكمها ومن التحالف الظالم مع الكيان الإسرائيلي ضد حق الشعب الفلسطيني في الوجود والحياة.

ومما عقد مستقبل العلاقات وجود الاحتلال الأمريكي في العراق، ونعتقد أن إدارة بوش لم تكن ذكية أبداً حينما شنت حربها على العراق، على الشعب العربي المسلم. على عاصمة الحضارة العربية بغداد. ونعتقد أن ما قامت به الولايات المتحدة من غزو للعراق زاد الشعور بالعداء للولايات المتحدة، وأفقد الكثير من الأمل في تحسن أي علاقات بين المسلمين وبينها. فإذا أزالت الولايات المتحدة احتلالها وتهديداتها للعرب والمسلمين فإن أكبر العقبات قد تكون زالت من طريق العلاقات بينها وبين المسلمين. أما إذا ظلت الولايات المتحدة تنظر إلى العرب والمسلمين على أن لديهم قابلية للاستعمار فإنها تكون قد استعلت في الأرض، كما استعلى فرعون وجميعنا يعرف ما مصير فرعون ومدى طغيانه وبغيه ونهايته.

3 ـ مستقبل العلاقات مع آسيا:

حددت الولايات المتحدة سياستها تجاه العالم بمقولة واضحة، من يريد أن يفتح علاقات جيدة مع الولايات المتحدة عليه أن يفتح علاقات جيدة مع إسرائيل.

هكذا، وبكل وضوح، حددت أمريكا سياستها تجاه العالم العربي والإسلامي وتجاه بقية دول العالم. كيف نحدد موقفنا ومستقبل علاقاتنا نحن ـ العرب والمسلمين ـ مع غيرنا من الأمم والشعوب والدول؟

حقيقة الأمر أن هناك مقياسين نحدد بهما تلك العلاقات، والمقياسان مرتبطان ارتباطاً وثيقاً، المقياس الأول قضية فلسطين. والمقياس الثاني، الموقف من الأقليات المسلمة في الدول. وقد نعكس الأمر فنرى أن المقياس الأول هو الموقف من الإسلام والمسلمين والمقياس الثاني هو الموقف من قضية فلسطين.

وإذا نظرنا إلى خارطة آسيا والتوزع السكاني والديني والعرقي فيها وجدنا تبايناً كبيراً بين الأمم والشعوب التي تقطن هذه القارة العملاقة الكبيرة بمساحتها، الكبيرة بعدد سكانها، فهناك العرق الملاوي الذي يدين سكانه الدين الإسلامي وخاصة في إندونيسيا وماليزيا وبروناي وجنوب الفلبين، وجنوب تايلند (فطاني) وسنغافورة.

وهناك العرق الياباني والصيني والفيتنامي والكوري وجنوب شرق آسيا. وهناك الأعراق التركية والفارسية والتترية وحتى الروسية. إلى جانب أعراق أخرى لا مجال لحصرها لكن الذي يشدنا إلى هذا الموضوع مسألتان.

1 ـ **المسألة الأولى**: وجود أقليات مسلمة تضطهدها أكثرية هندوسية أو بوذية أو روسية وأكثر ما يطفو على السطح تلك التي يعاني منها المسلمون في الهند وفطاني وشرق الصين وفي الشيشان وجنوب الفلبين وغرب بورما، أي في إقليم أراكان.

2 ـ **المسألة الثانية**: علاقات بعض الدول مع الكيان الإسرائيلي ومدى تأثير هذه العلاقة على حق الشعب الفلسطيني في تحرير أراضيه. فهناك دول تقيم علاقات مع هذا الكيان ولكنها في الوقت نفسه تقف موقفاً إيجابياً من حق الفلسطينيين في وجودهم على أراضيهم.

لكن دولاً أخرى يصل التعاون بينها وبين الكيان الإسرائيلي حد التحالف الإستراتيجي ضد المسلمين، والذي يتضمن التعاون الأمني والاستخباراتي والعسكري.

وعلى ضوء هذه العلاقات بمكن لنا نحن ـ العرب والمسلمين ـ أن ننظر إلى كيفية العلاقات بيننا وبين تلك الدول. ولا يمكن لأمتنا المسلمة أن يكون لها علاقات مستقيمة وقوية وفي الوقت نفسه يقوم الطرف الآخر بإبادة إخواننا المسلمين في تلك البلاد أو أن يبقى الطرف الآخر في تحالف أمني عسكري إستراتيجي مع الكيان الإسرائيلي.

ومن منطلق إسلامي واضح يستند إلى حديث رسول الله ﷺ «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم». نحدد موقفنا تجاه علاقاتنا الحالية والمستقبلية مع دول آسيا غير المسلمة. وعندما نضع في هذا المجال أمثلة حول ذلك فإننا نؤكد أن طرحنا ليس مقتصراً على هذه الأمثلة، إنما تلك أمثلة تقاس عليها جميع الدول الآسيوية غير المسلمة.

المثال الأول: الهند ونمو الهندوسية العنصرية والتحالف مع الكيان الصهيوني:

إذا عدنا إلى التاريخ البعيد والقريب يتبين لنا أن الهندوس الذين يحكمون الهند ويتسلطون على مقدرات هذا البلد الآسيوي الكبير حملوا إرثاً عنصرياً عدائياً ضد المسلمين منذ أكثر من ألف عام عندما كان السلاطين من المسلمين الهنود يحكمون هذه البلاد. ويتصدون لكل الحركات الوثنية والعقائد الخرافية المنحرفة. وخلال المائتي عام الأخيرتين وخاصة مع بداية دخول القوات البريطانية إلى الهند تصدى المسلمون وحدهم لهذا الغزو تعبيراً عن جوهرهم الرافض للاستعمار. وقد وجد الإنجليز ضالتهم في تغذية عدة تيارات قومية وعقدية كي يضعف موقف المسلمين وينهاروا ليتسنى للإنجليز السيطرة كلياً على الهند. وكان التيار الهندوسي أقوى هذه التيارات باعتبار الأكثرية الهندية من الهندوس.

وما إن حل عام 1947 حتى ظهرت إلى الوجود دولتان. واحدة للمسلمين وسميت باكستان وأخرى للهندوس مع أقلية مسلمة حملت اسم الهند. وخلقت مشكلة كشمير ليظل الصراع محتدماً بين المسلمين والهندوس حتى هذا الوقت.

خلال حكم حزب المؤتمر بدءاً بنهرو وانتهاء براجيف غاندي لم تكن الهند بحاجة إلى إقامة علاقات إستراتيجية مع الكيان الإسرائيلي. فقد كان الاتحاد السوفياتي السابق الممول الأساس للهند بالسلاح. وكانت باكستان المسلمة تتغذى بالسلاح من الولايات المتحدة والصين كأمر تقليدي بسبب نزاعات الحرب الباردة والعداء التقليدي بين الصين والهند.

كان الظرف الدولي آنذاك والإقليمي يدفع بالهند لتكون أحد أقطاب دول عدم الانحياز التي كانت إلى حد ما تؤثر في اتجاهات السياسة الدولية.

وتأتي التغيرات الكبرى بعد اتفاقيات كمب ديفيد لتغير مسار الأمور أو تحرفها بشكل كبير فدول عدم الانحياز لم تعد تلك الدول التي تخجل على الأقل من إقامة

علاقات دبلوماسية مع إسرائيل باعتبارها دولة قامت على الاغتصاب وطرد شعب بأكمله من أرضه طالما أن مصر وهي أحد أقطاب هذه الدول وقعت اتفاقية سلام مع إسرائيل. ومنذ ذلك الوقت راحت الهند وغيرها من الدول تتحرك لإقامة علاقات مع إسرائيل واضعة في اعتبارها مصالحها الإقليمية الضيقة على حساب مبادئ الإنسانية وحقوق الشعوب في نيل استقلالها.

ومع تلاشي الاتحاد السوفياتي واستفراد أمريكا بالقوى الكبرى في العالم جاءت التغيرات الكبرى لتقضي تماماً على كل المنظمات والتكتلات الإقليمية المستقلة إلى حد ما عن الإرادة الأمريكية.

ومع إسقاط حزب المؤتمر ومقتل آخر زعيم له استطاع التيار الهندوسي العنصري أن يكسبها مئات الملايين من الهندوس من خلال أكبر حملة تغذية عنصرية قامت بها دوائر حزب جاناتا الهندوسي. وكذلك دوائر السلطات التعليمية والتربوية في المدن والقرى على طول الهند وعرضها وكانت مادة هذه الحملة إشعال نار الحقد على المسلمين والفتك بهم وتغذية الشعور القومي المضاد لباكستان التي صورت على أنها الخطر المحدق الذي يهدد الأمة الهندية.

من هنا كان من الطبيعي أن تلتقي الأفكار العنصرية المعادية للمسلمين بين الحركات الهندوسية العنصرية والحركة الصهيونية. ومن هنا أيضاً جاء تطور العلاقات الإستراتيجية بين أمريكا وإسرائيل والهند.

ففي فلسطين شعب مسلم يريد حقوقه لكن الصهاينة يصورون هذا الشعب بأنه المعتدي على دولة الكيان ويريد تدميرها. وفي أدبيات حزب جاناتا الهندوسي والذي حكم الهند مدة طويلة من الزمن تصوير للمسلمين بأنهم يريدون تدمير الهند من خلال فصل كشمير عنها ومن خلال وجود باكستان التي تطور قدراتها النووية لتدمير الشعب الهندي.

ويرى بعض المحللين أن التراث العقدي الهندوسي وكذلك التراث العقدي الصهيوني يحملان في جوهرهما حقداً على الإسلام يمتد إلى قرون بعيدة. ويأتي نتيجة هذا

الحقد مزيد من حملات الإبادة والقتل الجماعي للمسلمين ومزيد من هدم وإزالة المعالم الأثرية الإسلامية.

ويرى بعض المسلمين الهنود أن هدم المسجد البابري في ولاية أيوديا براديش الهندية وخاصة في بعده الديني والتاريخي لا يقل عما يخطط له الصهاينة لهدم المسجد الأقصى. الهندوس يدّعون أن مسجد البابري أقيم على أنقاض معبد أحد الآلهة الوثنية الهندية المدعو راما والصهاينة يدعون أن المسجد الأقصى أقيم على أنقاض هيكلهم. والخطورة لا تكمن في البناء كبناء وإنما تكمن في كون المسجد رمزاً أساسياً من رموز الإسلام والمسلمين. وهذا التوجه لا يغيب عن أذهان زعماء الهندوس وأذهان زعماء الحركة الصهيونية. إنها حرب بين الخرافة الهندوسية واليهودية وبين حقيقة المسجد وحقيقة الإسلام.

من هنا يبدو المشهد أكثر من علاقات سياسية أو عسكرية أو حتى تحالف إستراتيجي أو علاقة مصالح مادية. بل يبدو المشهد اكتشافاً للتشابه بين رؤيتين عقديتين تستندان إلى جذور نفسية وتاريخية وحضارية. القاسم المشترك بينهما العداء للإسلام والمسلمين. وعنصرية دينية أساسها الفهم العقدي الوثني الذي يقسم البشر إلى أسياد وعبيد، إلى كهنة ومنبوذين، إلى أصناف بشرية إلهية وأنصاف إلهية وأصناف بشرية حيوانية، وباختصار إلى شعب مختار وشعب خارج دائرة الاختيار.

من هنا كان لابد من عودة إلى الجذور العقدية لكلا التوجهين الهندوسي الصهيوني.

في أسفار العقيدة البرهمية عدد من الأسفار أو الكتب أهمها على الإطلاق الكتاب التاسع والكتاب العاشر. وهما يتحدثان في طبقات المجتمع والنظم الخاصة بكل طبقة منها. وفيها ما يسمى قوانين مانو، وهي لا تعترف بمبدأ المساواة بين الناس في القيمة الإنسانية المشتركة. بل تقرر التفاضل بينهم بحسب عناصرهم ونشأتهم الأولى. وتزعم هذه القوانين أن الإله براهما خلق من فخذه طبقة الشودرا أو المنبوذين. وأولاد كل طبقة يمارسون وظائف آبائهم. ولا يصح لفرد من طبقة ما أن ينتسب إلى غير طبقته ولا أن يزاول غير الوظائف المخصصة له. ويشير البيروني إلى ذلك يقوله في كتابه الهام (تحقيق ما للهند).

وللهند في أيامنا من ذلك أي (تقسيم الناس إلى طبقات) أوفر الخطوط حتى أن مخالفتنا إياهم وتسويتنا بين الكافة إلا بالتقوى كان من أعظم الحوائل بينهم وبين الإسلام. وفي كتاب التوراة الحالية وكتاب التلمود مئات القوانين والتشريعات العنصرية المشابهة التي تميز بين اليهود وغيرهم. وبين يهود ويهود. وأكثر أجزاء التلمود تركيزاً على هذه العنصرية كتاب رسالة الوثنيين الذي يشرع لليهودي قوانين التعامل العنصري مع غيرهم.

يقول التلمود: الغرباء وثنيون فتجب إبادتهم. وإن لم تحصل الإبادة فيجب معاملتهم بنظرة دونية. وجاء فيه: (إن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة فإذا ضرب أمي إسرائيلياً فكأنه ضرب العزة الإلهية، ويقول الحاخام شنيؤورس: إن الفرق بين اليهودي وغير اليهودي هو من النوع الذي ينطبق عليه التعبير السائر (لا وجه للشبه) إذ كيف يمكن البحث عن فرق بين شيئين من مستويين مختلفين. ففي حين يجلس اليهودي في المرتبة العليا وينحدر من الصنف الأسمى تقبع بقية الأمم في الدرك الأسفل وتنحدر من أدنى صنف.

ويستند هذا الكلام إلى نص توراتي يقول: أنا إلهكم الذي ميزكم عن (الشعوب) سفر التثنية 2: 10.

وفي العقيدة الهندوسية خُلق الشودرا أو المنبوذ من قَدَمِ الإله براهما، فلذلك هم أنجاس لا يلمسون. ولا يحق لهم أن يعملوا إلا في أدنى الأعمال، وهذه الصورة نجد صداها في نصوص التلمود.

فإذا كان المنبوذون خلقوا لخدمة الطبقات الأعلى في المجتمع الهندي فإن التلمود يرى أن كافة مخلوقات الله خلقت لخدمة اليهودي.

يقول التلمود: في ميدراش تالبيوت، خلق الأكوم (الغرباء) لغاية وحيدة هي لخدمة بني إسرائيل ليل نهار. وهم لا يستطيعون التخلص من هذه الخدمة.

وفي الهندوسية واليهودية تلتقي التعاليم بأن المنبوذين والشعوب غير اليهودية لا يمكن أن يتخلصوا من هذه الخدمة.

ويقول التلمود: إن النطفة المخلوق منها باقي الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان.

فأرواح المنبوذين وأجسادهم بخسة حسب العقيدة الهندوسية وهذا ما جاء في الكتاب العاشر من قوانين مانو الهندوسية والذي يشتمل على 131 مادة، جميعها تتحدث عن الفروق بين الطبقات وكذا الأمر في عقيدة التلمود.

ويقول الرابي مناحيم: أيها اليهود إنكم من بني البشر لأن أرواحكم مصدرها روح الله وأما باقي الأمم فليست كذلك لأن أرواحهم مصدرها الروح البخسة.

أما الحاخام أرئيل فيقول: ويلزم المرأة اليهودية أن تعيد اغتسالها إذا رأت عند خروجها من الحمام شيئاً بخساً كالكلب والحمار والمجنون والأمي.

ومن أغرب التقاطعات بين العقيدة الهندوسية والعقيدة اليهودية أن الهندوسية ترى أن طبقة الشودرا أو المنبوذين وخاصة الذين يسمّون بـ (جندال ودوم وبدهتوا) خرجوا إلى الوجود نتيجة السفاح بين أب يدعى شودر وأم تدعى برهمن فهم منفيون منحطون.

وجاء في سنهدرين من التلمود على لسان توسينوت: الجماع الجنسي (للغُوِي) هو كالجماع الجنسي للبهيمة. وإن قيمة مني الغوي هو كقيمة مني البهيمة.

الجذور التاريخية لعداء العرب والمسلمين:

ليست التقاطعات الدينية العنصرية بين الهندوسية واليهودية المنحرفة هي التي تشكل كل شيء في العداء للآخرين، ففي الجذور التاريخية لكل من الهندوس واليهود المنحرفين تقاطعات كثيرة تمتزج فيها الجوانب الحضارية تارة والتراثية تارة أخرى والاقتصادية تارة ثالثة.

فالهندوس يرون في الإسلام ديناً غريباً فُرض على كثير من الهنود منذ الفتوحات الإسلامية الأولى في القرن الأول والثاني الهجريين، وقد كان ملوك الإقطاع الهنود يتحكمون برقاب الناس من الطبقات الفقيرة والفلاحين و(المنبوذين) وتضررت مصالح هؤلاء بسبب تعاليم المساواة والعدالة التي نشر أسسها الإسلام في كل مكان

يصل إليه المسلمون. وقد استغل رجال العقيدة البرهمية المتحالفون مع الإقطاع المهراجات ذلك ليشيعوا بين الهنود أن المسلمين أتوا للهند لتقويض الحضارة الدينية الهندوسية.

وقد ظل السلاطين الهنود المسلمون يحكمون أكثر مناطق الهند لقرون عدة. فبنوا آلاف المدارس الدينية والمساجد ودور العلم، وبلغ النشاط التجاري ذروته في زمن هؤلاء السلاطين خاصة في بومباي وكلكتا.

وما إن حل القرن السادس عشر مسيحي حتى راحت الدول الاستعمارية كإسبانيا وهولندا والبرتغال تفتش لها عن موطئ قدم في الهند وجنوب آسيا، مما دفع السلاطين المسلمين للتصدي لهؤلاء المستعمرين. ومنعهم من بناء المستعمرات العسكرية والتجارية على أراضي الهند ومع تنامي الاستعمار الإنجليزي في القرن التاسع عشر، ودخوله حلبة الصراع والتنافس الاستعماري في آسيا والهند خاصة انكفأ المستعمرون القدامى وراح الإنجليز يوطدون أقدامهم في الهند حتى تم لهم استعمارها.

لعب الإنجليز لعبة إحياء الهندوسية كهوية وعقيدة لمواجهة الإسلام والمسلمين وابتدعوا عقائد تدّعي الإسلام بينما هي تنشق عن المسلمين وتحالف المستعمر الإنجليزي كالقاديانية ومن ثم الأحمدية المنشقة عنها. وتحت رعايتهم ظهرت السيخية في الشمال والشرق من الهند. وأججت نار العواطف العنصرية في هذه النحل حتى وقف معظم الإقطاعيين إلى جانب الإنجليز وكذلك رجال الدين البراهمة.

ويؤكد الشيخ مجاهد الإسلام قاسمي رئيس مجلس القضاء الإسلامي في الهند أن الإنجليز رسخوا العداء في نفوس الهندوس ضد المسلمين من خلال تنمية الروح الهندوسية وإشاعة أن الإسلام غريب كدين ويجب الحد منه والقضاء عليه.

وبحلول عام 1947 مسيحي تشكلت كما هو معلوم دولة باكستان حيث الغالبية المسلمة وكان الإنجليز قد قاموا بعقد صفقة مع أحد أمراء الهندوس حين باع البريطانيين مقاطعة كشمير بـ 7.5 مليون روبية، أي أن قيمة الفرد المسلم في كشمير بلغت سبع روبيات، وتقرر في معاهدة أمرتسار عام 1847 أن يعترف الأمير

الهندوسي بالسيادة البريطانية على إقليم كشمير. مثلما حدث في سائر الإمارات. وظل مسلمو كشمير طوال قرن من الزمان يتعرضون لصنوف شتى من الظلم والاضطهاد حتى عام 1947، حيث نص إعلان الحكومة البريطانية أن تنضم إلى باكستان المناطق ذات الأكثرية المسلمة، لكن كشمير ظلت تحت نير الاستعباد الهندوسي حتى هذا اليوم.

وللتعبير عن رفض المسلمين للاستعمار والقابلية للاستعمار قاموا بثورات متعاقبة لتحرير أوطانهم من الظلم الهندوسي والقهر الذي يمارس عليهم. وما تزال الثورة الإسلامية مشتعلة في هذا الجزء من الأرض الهندية المسلمة.

وما يعنينا في هذا الإطار أن عمليات الإبادة والجرائم الهندوسية وكذلك الصهيونية وصلت ذروتها عام 1947 مسيحي. فكلتا الحركتين الهندوسية والصهيونية قامتا بالجرائم بالأسلوب نفسه وبالطريقة نفسها وفي عام واحد.

والغريب في الأمر أن المنظمات والعصابات الهندوسية المعروفة باسم آرسي سي وعصابة دوغر التي تكوّن جيوش المهراجات والأمراء الهندوس قامت بارتكاب عمليات إبادة جماعية ضد المسلمين ولمدة ثلاثة أشهر متواصلة في عام 1947 مسيحي. وفي فلسطين أيضاً قامت عصابات الهاغاناه وشتيرن والإرغون وتسفي بعمليات إجرامية جماعية بحق الشعب الفلسطيني تمهيداً لأكبر حملة تهجير ومن ثم إقامة الكيان. والهندوس لا يكرهون المسلم فقط، بل ينظرون إليه باحتقار من منطلق أن الهندوس هم شعب الله المختار تماماً مثلما ينظر اليهود والصهاينة لأنفسهم وللعرب.

ولعل التشابه الأكبر بين الهندوس والصهاينة يكمن في حب القضاء على الحضارة الإسلامية والمقدسات الدينية والاستيطان، فعندما وقعت كشمير في قبضة الجيش الهندي دفعت بموجات من الهندوس للاستيطان في كشمير لتغيير الطابع السكاني، وكذلك فعل الصهاينة حيث استقدموا المهاجرين اليهود بالملايين للاستيطان في القدس والضفة وفلسطين بأسرها. وما زال الطرفان الهندوسي والصهيوني يمارسان عمليات الاستيطان على حساب أراضي المسلمين في كشمير وفلسطين.

ممارسات عنصرية تتشابه إلى حد التطابق، ومن خلال الموقف الديني العنصري للهند والكيان الصهيوني، يتبين أن الطرفين مارسا ممارسات عنصرية بحق المسلمين لحقت الجانبين البشري والمادي. وتشابها تماماً في الأساليب.

فمنذ عقود طويلة وحملات القتل والإبادة والإذلال تستمر في الهند ضد المسلمين لكن الصورة العنصرية تتجلى في أساليب غير إنسانية تستخدم بشكل ملفت للنظر؟

فالهندوس وبمساعدة من أجهزة الأمن الحكومية يقومون بالهجوم على أحياء مسلمة فيجمعون الشباب والشابات ويشعلون النار فيهم وهم أحياء، ويفجرون المتاجر بمن فيها، ويهاجمون المدارس حيث يقتل مئات الأطفال جراء التفجيرات أو الغازات السامة.

ولعل من أبشع الأساليب العنصرية التي يستخدمها الهندوس الإيعاز للأطباء في المستشفيات العامة والعيادات بحقن النساء والفتيات المسلمات بفيروسات تمنع الحمل. بحيث تصبح الفتيات عقيمات. وذلك دون أن تدرك المسلمات أن الأدوية التي تعالج فيها أدوية وعقاقير قاتلة لعدة أجهزة عصبية في الجسم.

وليست أساليب الكيان الصهيوني بعيدة عن ذلك، فهي في الدائرة نفسها وتحاول وبشتى السبل منع تزايد عدد الفلسطينيين وذلك من خلال الأساليب الطبية الخبيثة، ومن خلال التضييق المستمر على الأسرة الفلسطينية وخاصة داخل الأراضي المحتلة عام 1948 مسيحي. وتقارير اللجان الطبية الدولية كالصليب الأحمر تشير إلى أن إدارة سجون الاحتلال الصهيوني تلجأ إلى أساليب تعذيب شرسة من شأنها إحداث عاهات دائمة لدى المعتقلين من شأنها الحد من الإنجاب أو قتلهم تماماً لديهم.

أما على المستوى المادي فإن هدم المساجد في الهند وكذلك في الكيان الصهيوني وصل حداً ينذر بالخطر الفادح، فالعدو الصهيوني يحاول جاهداً أن يدمر المسجد الأقصى ويمحوه من الوجود. ومنذ عام 1948 وحتى الآن هدم هذا العدو مئات المساجد في الأراضي المحتلة عام 1948 وحول بعضها إلى مراكز لهو كما فعل في أحد المساجد في مدينة يافا. كما حول بعضها إلى كُنس تقام فيها شعائر الخرافات اليهودية.

وفي الهند هدم الهندوس مسجد البابري التاريخي، وقد حذر أحد الزعماء المسلمين الهنود من أن الهندوس يهددون تسعة آلاف مسجد بالتدمير والهدم في الهند ومن الواضح في كلتا الحالتين أن الحرب على المسجد كرمز هي حرب بين الإسلام والهندوسية واليهودية والصهيونية.

ويرتبط هدم المساجد ارتباطاً وثيقاً بالتيارات العنصرية الدينية للهندوس واليهود. ولذا نجد المنظمات الإرهابية العنصرية تلقى الرعاية الكبيرة من قبل حزب بهارتيا جاناتا الهندوسي وكذلك من قبل الأحزاب التي حكمت الكيان الصهيوني طوال خمسة عقود.

ففي الهند تعتبر منظمة RSS أكبر المنظمات الهندوسية العنصرية وهي تدعو حسب قولها إلى تطهير الهند من المسلمين. وقد أصدرت في بداية التسعينات وثيقة نشرتها بين أوساط الهندوس تدعو فيها إلى القيام بعمليات إبادة ضد المسلمين وحرقهم أحياء والهجوم على سكنهم ومدارسهم ومساجدهم. وتلقى هذه المنظمة دعماً قوياً من قبل حكومة حزب جاناتا الهندوسي.

وليس ذلك بعيداً عن المنظمات اليهودية الصهيونية كمنظمة أمناء الهيكل، وغوش إيمونيم وغيرهما، فهذه المنظمات تلقى الرعاية والدعم من حكومات العدو الصهيوني ومن كبار ضباط الجيش. وهي تدعو إلى تدمير المسجد الأقصى وطرد العرب من فلسطين أو تصفيتهم.

وقد تبين أن تعاوناً وثيقاً يجري بين المنظمات العنصرية الهندوسية والمنظمات اليهودية السرية إضافة لمنظمات عنصرية أمريكية وغربية أمثال منظمة كوكلوكس كلان التي تغذي عدة فروع لها في أنحاء العالم وتتعاون مع كافة التنظيمات العنصرية المعادية للإسلام والمسلمين. وقد ذكرت بعض التقارير أن زعيم منظمة كلان التقى عام 1995 مع زعماء المنظمات السرية الإرهابية الهندوسية واليهودية الصهيونية للتنسيق وابتداع أساليب جديدة لإبادة المسلمين في مناطق البلقان وجنوب آسيا والولايات المتحدة وفلسطين المحتلة.

وبالنتيجة فإن القارئ للعلاقات الهندية الصهيونية لا يكفيه أن ينظر إلى المسألة من خلال المصالح الإستراتيجية العسكرية ودور كل من الهند والكيان الصهيوني في رسم مناطق

النفوذ في الخليج والوطن العربي. إنما لا تتم الرؤية إلا إذا عاد نحو الماضي ونحو مسألة العداء الديني المتجذر في العقلية الوثنية الهندوسية والعقلية التوراتية التحريفية اليهودية.

وتتم أيضاً من خلال حملات العداء والعنصرية والإبادة للمسلمين ومساجدهم في الهند وفلسطين المحتلة. ولعل من أهم أوجه التشابه بين الحكام الهندوس وسلطات الاحتلال انبثاق حركات ومنظمات إرهابية تقوم بأعمال إرهابية ضد المسلمين وكل ما يرتبط بهم من مساجد أو مدارس أو جمعيات.

وأهم منظمة عنصرية انبثقت عن حزب بهاراتيا جاناتا منظمة RSS التي تدعو إلى حملة تطهير الهند من المسلمين على حد قولها. وليس ذلك بعيداً عن المنظمات الصهيونية التي انبثقت عن حزب العمل أو حزب الليكود أو شاس أو أي حزب صهيوني آخر. فهذه المنظمات كمنظمة غوش إيمونيم، أو حركة أمناء الهيكل أو غيرهما تدعوان الآن علناً وفي ظل حكومة الليكود الصهيونية إلى طرد الفلسطينيين كلياً من الضفة والقدس أو إبادتهم.

وتتغذى هذه المنظمات في الهند والكيان الصهيوني من المؤسسة الحاكمة من التيارات المماثلة في كافة أنحاء العالم. فتوفر لها الأسلحة والمال والمتفجرات بأساليب سرية كثيرة، لتنفذ عمليات نسف للمساجد وعمليات قتل بحق الشعب المسلم في فلسطين أو الهند.

الأبعاد الإستراتيجية للتحالف:

أصبحت الهند بعد تفكك الاتحاد السوفياتي وتفرد الولايات المتحدة كقوة كبرى في العالم أقرب إلى أميركا من أي وقت مضى. وقد لعبت حلبة الصراع بينها وبين باكستان الدور الأهم في هذا التقرب. لكن التدخل العسكري الأمريكي في أفغانستان تحت شعار محاربة الإرهاب دفع الهند أكثر فأكثر للوقوف إلى جانب الولايات المتحدة في حربها الدولية على الإسلام والمسلمين. ومن الطبيعي أن نشهد حملة هندية شرسة على المقاتلين المسلمين في كشمير في الوقت نفسه التي تشهد أفغانستان وغيرها من المناطق حملة أمريكية وإقليمية على الحركات الإسلامية التي تجاهد لنيل حقوقها.

ولعل التشابه بين ما يجري في فلسطين وكشمير دفع الهند والكيان الصهيوني لإقامة تعاون وثيق في المجال الأمني والعسكري الغاية منه القضاء على المقاومة في كشمير وفلسطين. وقد توّج هذا التعاون بإرسال المئات من ضباط الموساد لتدريب المخابرات الهندية في مجال الاغتيالات وملاحقة المجاهدين.

ومما ساهم في اشتداد الحملة في الهند وفلسطين على المسلمين المجاهدين الحملة الأمريكية الدولية على ما يسمى الإرهاب. فإضافة إلى الحملة على التنظيمات المسلحة شنت أمريكا حرباً على كافة المنظمات والجمعيات الإسلامية في العالم، ومن ضمن حملتها وضع المقاتلين الكشميريين على لائحة الإرهاب وكذلك وضع التنظيمات الفلسطينية المجاهدة في الدائرة نفسها.

أما في المجال الحيوي الاستراتيجي فلا يخفى على الهند دورها الحالي والمستقبلي في منطقة الخليج الغنية بالنفط، فالكيان الصهيوني يلعب دور الحارس القوي لمصالح أمريكا والغرب في حوض المتوسط وليس غريباً أن تلعب الهند الدور نفسه في الخليج العربي وبحر العرب ولعل من مظاهر الخطر الهندي في تلك المنطقة وجود مئات الألوف من الهنود الذين يعملون في دول الخليج في كافة المجالات والاختصاصات. ويشكل هذا الثقل البشري الهندي في المنطقة جيش الظل الهندي الذي يحتل المنطقة بصورة غير مباشرة، ومن ثم يأتي وجوده على حساب العرب الذين لا يجدون أي فرص للعمل في هذه المنطقة.

أما على الجانب العسكري الإستراتيجي: فإن النظرة العسكرية الإستراتيجية للكيان الصهيوني تتوافق تماماً مع النظرة الإستراتيجية العسكرية للهند. وتشكل الباكستان بما تملك من قدرات نووية خطراً على الهند والكيان سيما إذا ما تغير الحكم الباكستاني وانقلب لصالح التيار الإسلامي القوي، وقلق الصهاينة والهنود يستند في أساسه على التقلب السياسي المتوقع في باكستان. وليس بعيداً عن ذلك تنامي القوة الإيرانية التي قد تشكل مستقبلاً خطراً آخر على الكيان الصهيوني وعلى الهند نفسها وذلك بسبب التنافر الديني العميق الجذور وبسبب الحملات الهندية العنصرية على المسلمين.

ولعل انتصار التيار الإسلامي في باكستان قد يجد له صدى في بعض الدول العربية ويجد له منفذاً للتحالف الإستراتيجي ضد الكيان الصهيوني، ومن هنا يعمل الكيان الصهيوني كل ما بوسعه للتعاون مع الهند لتظل سيفاً مسلطاً على باكستان لتحد من أي تطلع إسلامي مستقبلي يؤلف بين المسلمين ويدفعهم للتمسك بالثوابت الإسلامية التي تدرك أن فلسطين قضية مركزية لكافة المسلمين في العالم.

وعلى الرغم من أن النظام في باكستان يميل كل الميل إلى أمريكا إلا أن الولايات المتحدة لم تعد على سابق عهدها تجاه باكستان لأن الوقائع تشير إلى إعطاء الهند أهمية أكبر ودوراً أكبر في المنطقة، ولذلك جاء رضا الولايات المتحدة عن الصفقة العسكرية الضخمة بين الكيان الصهيوني والهند والتي بموجبها يتم بيع الهند نظام رادار أواكس المتطور من قبل الكيان، والتي وقعت اتفاقيته أثناء زيارة شارون للهند عام 2003 مسيحي وبلغت قيمته مليارين من الدولارات.

ويتم ذلك بينما ما تزال الولايات المتحدة تمنع بيع بعض قطع الغيار للطائرات الحربية الباكستانية والتي في أساسها صناعة أمريكية.

ويتضح أن المصلحة المشتركة للهند وأمريكا والكيان أن تكون باكستان ضعيفة ومحاصرة وتابعة لا حول لها ولا قوة إلا بمقدار ما تخدم المصالح الأمريكية وحملاتها ضد المسلمين في أفغانستان وكشمير والعراق وغيرها من المناطق.

إن المستقبل ينذر بأن تكون التحالفات قائمة على أساس الصراعات الدينية أولاً، والمستهدف في آخر مطافها الإسلام والمسلمون إن كانوا في فلسطين أو أي منطقة أخرى من العالم.

ولعل أنموذج تايلاند من النماذج التي يستشهد بها في مجال اضطهاد المسلمين في إقليم فطاني الواقع في جنوب البلاد. ولا نريد أن نعود إلى الماضي كي نشير إلى أن إقليم فطاني لا يمت بصلة إلى تايلاند لا من حيث السكان ولا من حيث العقيدة. فهذا الإقليم احتل في القرن الثامن عشر من قبل القوات التايلاندية وأصبح جزءاً منها.

ومارست تايلاند شتى صنوف القهر على الشعب الملاوي المسلم في فطاني، بدءاً بحروب الإبادة وانتهاء بتغيير البنية السكانية حيث استقدمت الحكومات التايلاندية البوذيين ليستوطنوا الإقليم على حساب السكان الأصليين.

أحدث ما قامت به القوات التايلاندية الجرائم التي ارتكبتها في مرحلتين من عام 2004 مسيحي، المرحلة الأولى في أواخر شهر نيسان من عام 2004 حيث ادعت القوات التايلاندية أن مسلحين هاجموا بعض نقاط الأمن التايلاندية في ثلاثة أقاليم جنوبية وجراء ذلك فقد قتل ثلاثون مسلماً فطانياً.

لكن الوقائع ومن خلال الصور التي نشرت على مواقع الإنترنت وفي الصحف تظهر أن القوات التايلاندية ارتكبت مجزرة في المسجد الكبير في كرياسي في جنوب تايلاند وراح ضحيتها 107 من المسلمين. ولم تحترم حرمة هذا المسجد حيث احترقت المصاحف والكتب الدراسية الإسلامية[25].

أما المرحلة الثانية فهي التي نفذت فيها مجزرة بتاريخ 25/ 10/ 2004 عندما قامت القوات التايلاندية باعتقال عدد من العلماء المسلمين وبعض الزعماء في منطقة فطاني فقامت المظاهرات ضد الاعتقال وتزلت قوات الجيش التايلاندي وراحت تهاجم المسلمين بإطلاق النار عليهم. وطوقت هذه القوات المئات من المسلمين بعد أن صبت عليهم حقدها واعتقلت المئات منهم. ومن بينهم النساء المسلمات والأطفال.

وراح الجنود ينزعون ثياب المعتقلين ويجرجرونهم على أرض الشوارع والدماء تسيل من صدورهم. وقد نقلت الشاشات الصغيرة هذه المناظر الإجرامية. وكما ظهر فيها قام عشرات الجنود بضرب هؤلاء المسلمين بالأقدام على رؤوسهم وضربوهم بأعقاب البنادق والخراطيم والعصي الغليظة. وحشرت النساء المسلمات بالعشرات في زاوية أحد الشوارع وهن يشاهدن أزواجهن وأبناءهن وهم يعدمون بالرصاص.

وظلت الأخبار غامضة حتى صباح اليوم التالي ـ الثلاثاء 26/ 10/ 2004 ـ وتبين أن أكثر من ثمانين مسلماً نفذت فيهم مجزرة رهيبة تشبه إلى حد التطابق جرائم الاحتلال الصهيوني في فلسطين[26].

ولن نزيد على ذلك في مثل هذه الدراسة، لكن يكفي أن نقول: إن الشعب المسلم أينما وجد يرفض الاستعمار والشعب الفطاني المسلم الذي يقاوم الاحتلال التايلاندي ليس لديه قابلية للاستعمار فهو يخوض حرباً على عدة مستويات وجودية وعقدية وتاريخية وشخصية كي تعود بلاده مستقلة.

لا نريد أن نتوسع في الحديث عما يعاني منه المسلمون في كثير من دول آسيا كالفلبين والصين ودول آسيا الوسطى ومناطق الشيشان وغيرها. فهناك من المجالات ما يصلح لمثل هذا الحديث. لكننا من باب الحرص على توضيح رؤيتنا لمستقبل العلاقات مع دول آسيا لابد أن نشير إلى بعض نماذج الاضطهاد والمعاناة والقهر التي يعيشها المسلمون في تلك البلدان.

ومن خلال حرصنا ـ نحن المسلمين ـ على توفير الأجواء الإيجابية لعلاقات حسنة مع كل شعوب العالم نريد أن نبين أن المسلمين يرفضون كل أشكال الاستعمار، وهم يحاولون على الرغم من قلة إمكاناتهم أن يحافظوا على دينهم وهويتهم وبلادهم.

فإذا أردنا أن تكون العلاقات المستقبلية مع آسيا مثمرة فلابد أن نوضح أن مصلحة شعوب آسيا ليس مع أي شكل من أشكال الاستعمار لأن هذه الشعوب جميعها ابتليت بالاستعمار. فمن الأولى بها أن ترفع الظلم عن الأقليات المسلمة وأن تعمد إلى خلق أجواء التساوي والعدالة والحرية لكل الشعوب.

مستقبل العلاقات مع إفريقيا:

لعلنا ونحن نتناول مستقبل العلاقات مع أفريقيا تبرز لنا معطيات واضحة أكثر فأكثر عن العلاقة مع هذه القارة السمراء.

فهذه القارة عانت جميع أقطارها من الاستعمار حتى لم يبق فيها إقليم إلا واستعمر. وما تزال آثار الاستعمار واضحة ماثلة للعيان إلى هذا اليوم.

ولكننا عندما نقول عن مستقبل علاقات مع أفريقيا قد نقع في إشكال. ففي أفريقيا أكثر من ثماني دول عربية تشكل الوجه الشمالي لها. وهي موريتانيا والمغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر والسودان والصومال. وبعض الدول فيها من العرب ما يشكل نسبة

عالية من السكان مثل أرتيريا وجيبوتي وتانزانيا (إقليم زنجبار) وأثيوبيا وتشاد. ويشكل الإسلام الدين الأول في هذه القارة. وتتداخل الهموم والآمال الأفريقية بين كل الشعوب التي تعيش فيها.

وتبدو أفريقيا اليوم القارة المؤهلة أكثر من غيرها للتقدم نحو مشروع وحدوي أفريقي سعت إليه، وتسعى القيادة الليبية منذ زمن وما تزال تتقدم به نحو التجسيد يوماً بعد يوم فإذا أردنا أن نقول أو نتحدث عن مستقبل العلاقات فإننا لا نستطيع أن نفصل بين العرب والمسلمين في هذه القارة. فقد تقاربت الطموحات حتى وصلت حد التطابق.

وكما قلنا فإن جميع شعوب هذه القارة ترفض الاستعمار رفضاً قاطعاً. وقد ناضلت بشتى الوسائل حتى نالت استقلالها. وعلى الرغم مما يجري من مؤامرات داخلية وخارجية في جنوب السودان وغربه وفي ساحل العاج وكذلك الكونغو إلا أن هذه المشاكل إذا ما قيست بما يعانيه غيرها وبما أنجزته على طريق الاتحاد الإفريقي تبدو القارة جميعها على وشك التخلص من الصراعات القبلية والتخلف.

المسلمون في القارة الأفريقية يشكلون غالبية. وأساليبهم الحياتية تفوقت على غيرها خاصة في مجال الدعوة إلى الإسلام والتحاور وخلق أجواء المحبة والحوار والتواصل مع بقية أصحاب العقائد الأخرى.

ولعل أهم سمات العلاقات بين شعوب أفريقيا قاطبة، أن أياً من الشعوب لا تطمح باحتلال أجزاء من أراضي شعوب أخرى. ولعل الفتن التي تحدث في مناطق محددة ليست سوى من فعل خارجي. وأخطر ما يواجهه الأفارقة التدخل الاستخباراتي والاقتصادي الإسرائيلي في عدد من بلدان هذا القارة.

وعلى الرغم من الأطماع الإسرائيلية في مياه النيل والاستثمار الاقتصادي في عدد من دول أفريقيا، وعلى الرغم من الأطماع الغربية في ثروات القارة، إلا أن المستقبل للشعوب الأفريقية الطامحة نحو التحرر الاقتصادي الاجتماعي والسعي الحثيث نحو إقامة وحدة حقيقية تجمع هذه الشعوب لتنهض بعد معاناة دامت قروناً وقروناً.